عظماء ومصلحون من مصر
دراسات وبحوث

رفاعة الطهطاوي

عبدالله النديم

أحمد لطفى السيد

محمد حسين هيكل

محمد طلعت حرب

محمد شفيق غربال

أحمد عرابى

عبدالعال حلمى

على فهمى

على الروبى

الأميرة نازلى فاضل

أم كلثوم

محمد عبدالوهاب

عبدالحليم حافظ

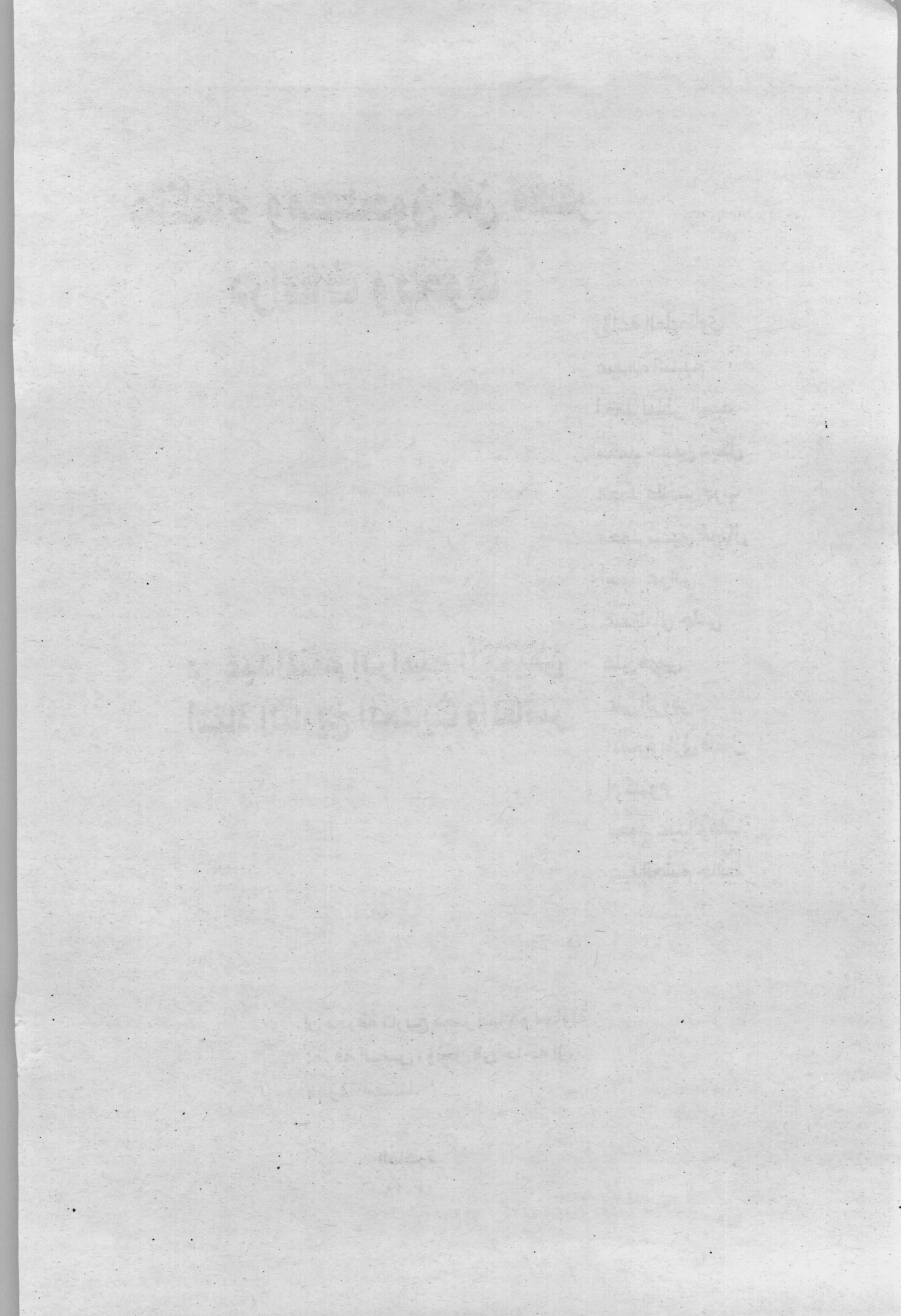
د. عبدالمنعم إبراهيم الجميعى

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

إن معرفة تاريخ مصر إنما هو محاولة لمعرفة النفس ، ونحن فى حاجه إلى معرفة أنفسنا.

القاهرة

٢٠١٨



مقدمه

هذا الكتاب عبارة عن تراجم Biographics تضم كوكبة من عظماء المصريين ما أحوج أبناء هذا الجيل إلى أن يتعلموا دروس الوطنية والكفاح من أجدادهم الذين كان شعارهم " بلادى هواها فى لسانى وفى دمى ، يمجدها قلبى ، ويدعو لها فمى " وأن مصر هى الحياة ولا حياة بدون مصر.

وما أحوج ابناء هذا الجيل إلى أن نصل حاضرهم بماضيهم حتى تنير لهم طريق المستقبل ، وأن نثبت لهم أن روح أبناءمصر الوطنية سليمة ووثابة ، ومتعطشة للتقدم مهما قسى عليها الزمن خاصة وأن مصر جذوة انسانيه من أقدم الجذوات اشتعالا ، وأروعها وأظهرها للعيان ، فمصر مكانها القلب ، ونحن نسكن فى أركانه ، والأيام تمر وتذهب ، بعضها يتحول الى ذكريات ، وبعضها يتحول الى دروس ، ومع ذلك تبقى مصر خالدة طالما الزمن باق وإذا كانت مصر هبه النيل كما قال " هيرودوت " فانها أيضا هبة المصريين كما ذكر " جمال حمدان " ، خاصة وإن جد المصريين فرعونى جليل ، والأب عربى نبيل ، والأم فى الحالتين بنت النيل.

وما أحوج أبناء هذا الجيل إلى أن يتعرفوا على تاريخ وطنهم ، وما قدمه العظماء من ابنائها من اجل رفعه شأنها ، حتى تتبوأ مكانتها بين الأمم ومن ابنائها من كان أمل الجماهير المظلومة فى استرداد حقوقها ومنهم من كان بطلا قوميا بكل ما تحمله الكلمة من معان ، وحكاية هؤلاء وهؤلاء اثبتت قدره الشعب المصرى على التحدى ، ومواجهه الصعاب ، وأن حكاياتهم كانت مدرسة رائده للوطنية المصرية تشكل من خلالها الوعى الوطنى لأجيال متعددة من المصريين.

وهذه الصفحات التى نقدمها فى هذا الكتاب تضم كوكبه من عظماء المصريين الذين قاموا بدورهم فى بناء مصر الحديثة ، وهؤلاء يمثلون نماذج تمثل التاريخ الوطنى والاقتصادى والفكرى للشعب المصرى فى تاريخه المعاصر بهدف مدى تأثير هذه الشخصيات فى المجتمع المصرى ، ومدى تفاعل هذه الشخصيات مع المجتمع

ومع أختلاف هؤلاء من حيث الزمن والنشأة ودرجة الثقافة فهم جميعا لديهم الإحساس بالتعبير عن الحياة بما فيها من مباهج ومتاعب ، ويمتازون بشفافية الروح ويستلهمون الجمال فى مختلف الوانه وعلى رأس هؤلاء يقف شامخا رفاعة الطهطاوى رائد حركة التنوير ، وعبد الله النديم خطيب الوطنية واحمد لطفى السيد أستاذ الجيل ومحمد حسين هيكل الذى ذلل القصة لكتابتها كما ذلل الكتابة الصحفية لأهلها ومحمد طلعت حرب زعيم مصر الاقتصادى ، ومحمد شفيق غربال مؤسس المدرسة التاريخية الحديثة.

وبالنسبة لرجالات الحركة الوطنية نذكر أحمد عرابى وعبد العال حلمى، وعلى فهمى، وعلى الروبى وغيرهم من زعماء الحركة الوطنية.

ومن أمراء الاسرة العلوية الخديوية نذكر الاميرة نازلى فاضل أما عن مسك الختام فنعرض لرواد الموسيقى والطرب أمثال أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ وغيرهم.

وما أحوج ابناء هذا الجيل الى التعمق فى دراسة شخصية هؤلاء وغيرهم ممن كان لهم ادوارا بارزة فى حياتنا المعاصرة.

فالتاريخ ليس مجرد عملية تجميع لحقائق بل يتعلق أيضا بمحاولات لاسترداد الماضى وتخيله، الماضى الذى لم نعد نستطيع أن نلمسه أو نراه والتاريخ لا يلامس شغاف القلب فحسب بل يلامس الرأس أيضا.

د. عبد المنعم الجميعى

رفاعة الطهطاوى رائد التنوير

د. عبد المنعم إبراهيم الجميعي

من الرجال من وضعت مصر عليه الآمال ، وخصصت له دورا كبيرا ليؤديه فاضطلع بمهمته بثقة واقتدار ، وأظهر من الجدارة ما يعادل الأمل المعقود عليه فتحمل عبء بناء بواكير نهضتها الحديثة ، واستطاع إضاءة مشاعل الفكر والتنوير بعد أن جاء بمنظومة ثقافية جديدة على فكر المصريين استطاع من خلالها أن يمزج الحضارة الشرقية بالحضارة الغربية دون المساس بهوية مصر الثقافية . إنه رفاعة رافع الطهطاوى الذى استطاع بفكره وأعماله وكتاباته أن يقدم رؤية دقيقة لكيفية إصلاح أحوال مجتمعه . ومن حسن حظ مصر أن حاكمها وقتذاك وهو محمد على كان قد شرع في وقف عملية الانكفاء على الذات ، وتنظيم شئون البلاد وإصلاح إدارتها بنقل علوم الغرب ونظمه وطرائقه إلى مصر فوجد رفاعة الساعد الأيمن له في تنفيذ هذه المهمة .

لقد ولد رفاعة في العام الأول من القرن التاسع عشر وتعلم في الأزهر ثم أرسل إلى باريس إماما للبعثة التي أرسلها محمد على إلى فرنسا ، ولكن طموحه دفعه إلى الدراسة وتحصيل العلم والمعرفة هناك، وبعد أن عاد رفاعة إلى مصر في عام ١٨٣١ كان متحفزا لعمل خطير ألا وهو إصلاح المجتمع المصرى بتعليم الشعب وتنوير العقول بعد أن

رأى مدنية الغرب عن كثب . ولما كانت مصر تتذكر دائما أبناءها العظام الذين وضعوا اللبنات الأولى في بناء نهضتها ، وبذلوا الجهود من أجل رفعتها فقد عقد المجلس الأعلى للثقافة مؤخرا ندوة دولية موسعة بمناسبة المئوية الثانية لميلاد رفاعة الطهطاوى بعنوان "رفاعة الطهطاوى رائد التنوير"[1] اشترك في جلساتها أكثر من ستة وخمسين من الباحثين المصريين والعرب والفرنسيين ، وقد شملت الندوة ثمانية محاور رئيسية فكان المحور الأول بعنوان "رفاعة وعصره" تناول قضية التحديث وعلاقته مع أوربا ، وحركة الإصلاح عند رفاعة ، ورؤية رفاعة لمتغيرات العصر . وتناول المحور الثاني المعنون "رفاعة مفكرا سياسياً" فكرة الوطنية عند رفاعة ، وفكرة المشاركة السياسية ومفهوم السلطة عنده ، وعلاقته بالسلطة ، وكان المحور الثالث بعنوان "الفكر الاجتماعي لرفاعة" وتناول المرأة في كتابات رفاعة وقراءة في وثيقة زواجه، ورفاعة والأخذ بأسباب الحداثة ، ووصايا رفاعة الفكرية ، ورفاعة بين وعى الريف وعقلية المدينة . وتناول المحور الرابع "الرؤى الاقتصادية عند رفاعة" أفكار رفاعة الاقتصادية ، والمنافع العمومية والتمدن في فكره ، ومقارنة بين أفكار رفاعة الاقتصادية وتولستوى ، وكان المحور الخامس بعنوان "رفاعة والصحافة" وتناول التحرير الصحفى عند رفاعة ومقالاته في الوقائع المصرية وروضة المدارس ، وتناول المحور السادس

"الجوانب الأدبية عند رفاعة" ، وقد تم التركيز فيه على الشعر والأدب وأدب الرحلات . وكان المحور السابع بعنوان "جهود رفاعة في مجال التعليم " وتناول دوره في صياغة النظام التعليمى ومفهومه للتربية ، ومقالاته التعليمية ، أما المحور الثامن المعنون "رفاعة والترجمة" فتناول

---

(1) عقدت هذه الندوة فى الفترة من ٢٠/٢٣إبريل٢٠٠٢

قضايا المصطلح والترجمات العلمية والأدبية ، وإنشاء مدرسة الألسن ودورها في حركة التعريب والترجمة . وبالإضافة إلى محاور هذه الندوة كانت هناك ثلاث موائد مستديرة ناقشت موضوعات مهمة على مدى أيام الندوة الثلاث وهى "النخبة والقاعدة الاجتماعية" ، و"المشروع النهضوى المصرى" ، و"تساؤلات عن الحاضر والمستقبل".والجديد في هذه الندوة أنها طرحت موضوعات لم يتطرق إليها أحد من قبل مثل ، "الأنا والآخر عند رفاعة ، والمصطلح وترجمته" ، و"أفكار رفاعة الاقتصادية" ، و"مدرسة الألسن" ، وأهمية العمل اليدوى وعدالته عند رفاعة وبعض مفكرى عصره من الأوربيين ، و"المدرسة بين الطهطاوى وبين طه حسين سياسة المثقف الحديث ويوتوبيا المدرسة" .

وحول الأنا والآخر . فقد حاول رفاعة إيجاد حالة من التوازن حول هذه العلاقة ، فكان يرى أن فرنسا متقدمة لأنها أخذت بوسائل العلم وأنه أخذ منها من وسائل العلم والعمران والتقدم ما لايتناقض مع جوهر الإسلام ، كما شبه الحرية والديمقراطية والمساواة التى قامت عليها نهضة فرنسا بالعدل والإنصاف في الإسلام ، وأنه إذا كان لا يوجد تناقض بينها وبين الإسلام فلماذا لا يتم الأخذ بها ، وإلى جانب ذلك فقد كان يرى أن تقدم الآخر علينا في الإدارة والعلوم والتنظيم لا يعنى تقدمه في كل شئ فنحن متقدمون عليه في الأمور الدينية ، كما كان يرى أن الاستفادة من حضارة الغرب لا يعنى التخلى عن العقيدة الإسلامية ، يضاف إلى ذلك أن رفاعة قارن بين طبائع الأنا والآخر فذكر أنه مما يستحسن في طباعهم حب النظافة مع أن حب النظافة من الإيمان . ومعنى ذلك أن الأنا عند رفاعة كانت تدفعه إلى إعطاء

الأولوية للدين عن الدنيا والعلم بينما يرى في الآخر أنه يعطى الأولوية للعلم والدنيا عن الدين والآخرة ٠

وحول قضايا المصطلح وترجمته فإنه في إطار إدراك رفاعة لمتطلبات مرحلة التحول الحضارى في مصر حاول التغلب على مشكلات ترجمة المصطلح وصياغته بوضع قوائم بالمصطلحات الحديثة التى وردت في بعض ترجماته ، كما حاول تعريف معاصريه بتعدد اللغات الأوربية القديمة والحديثة ٠ يضاف إلى ذلك أنه استخدم كلمات وتراكيب كثيرة من أصل عربى وبعضها من اللغات الأخرى ٠

وهكذا نجد أن العديد من الكلمات الجديدة اتخذت دلالات اصطلاحية عند الطهطاوى ومعاصريه وأصبح عدد كبير منها من الرصيد الأساسى للمصطلحات اللغوية في العصر الحديث ، ومعنى ذلك أن الطهطاوى كان على وعى بأن اللغة العربية تدخل مرحلة جديدة فقدم مفاهيم جديدة عبرَّ عنها لأول مرة باللغة العربية فوضع لها بالمقابل العربي مع المصطلح الأوربى ٠

وبالنسبة لأفكار رفاعة الاقتصادية فتتضح في حديثه عن قيمة العمل وقوة العمل والعمل المنتج للأموال ، والصناعة ، والسوق ، والبنوك ، والمعاملات التجارية ، والدخل القومى الناتج عن الزراعة والصناعة والتجارة، وتفضيل رفاعة للزراعة ٠ ومع أن رفاعة في تناوله لهذه الموضوعات كتب ما شاهده من معاملات تجارية وما قرأه في كتابات الفرنسيين فانه في عرضه لهذه الموضوعات لم ينس ثقافته الإسلامية التى كانت مقياسا لكل شئ يراه ويكتبه ، فإنه رغم محاولاته

إدخال بعض أفكار الثورة الفرنسية في النهضة المصرية الحديثة ، فقد كان متحفظاً في ذلك إلى حد كبير ٠

وحول مدرسة الألسن التى أنشأها رفاعة فإنها كانت إحدى الأدوات الهامة التى أدت إلى ربط الثقافة المصرية بالثقافة الأوربية حيث نقلت العديد من كتب التراث الغربى إلى العربية خاصة وأنها كانت أول معمل لتفريغ المترجمين عرفه العالم العربي قدمت من خلاله البارعين في فن الترجمة والقادرين على التحرير والكتابة والذين أسهموا في بناء الأجيال ٠

وقد قامت هذه المدرسة بترجمة الكثير من الكتب في الطب والهندسة والكيمياء والطبيعة والرياضيات والجغرافيا والتاريخ والعلوم والفنون الحربية، هذا بالإضافة إلى ترجمة القانون الفرنسى Code Napleon الذى يعد أبرز أعمالها وقد استمرت هذه المدرسة في تأدية دورها التنويري حتى تم انضمامها إلى جامعة عين شمس لتكون إحدى كلياتها ، ولتواصل الرسالة التى أرادها لها رائدها الأول رفاعة الطهطاوى ٠

وبالنسبة لأهمية العمل اليدوي عند رفاعة فإن قضية العدالة الاجتماعية كانت واحدة من أهم القضايا التي شغلت فكر رفاعة ، فقد رفع من شأن قيمة العمل والقائمين به لاسيما الفلاح الذى يمثل الأغلبية الشعبية الساحقة ، كما عارض استغلال كبار ملاك الأراضي لجهود الفلاحين ، ودافع عن حق الفلاح في جنى ثمار عمله ٠

أما بالنسبة لموضوع "المدرسة بين الطهطاوى وطه حسين سياسة المثقف الحديث ويوتوبيا المدرسة" ففيه جسَّد الطهطاوى صورة المثقف

الحديث وأكد أن الثقافة ملكية عامة تهذب البشر وتدفعهم إلى تكوين مجتمع جديد يؤمن بقوة المعرفة ، وبضرورة إدراجها في مشروع اجتماعي ينقل المجتمع نقلة حضارية إلى الأمام ، وذلك في إطار مجتمع إسلامي يأخذ معرفة الغرب دون أن يتخلى عن الثوابت ، أما طه حسين فإن فكره يختلف عن رفاعة في كونه يرغب في محاكاة النموذج الغربي خاصة الفرنسى بكل ما فيه، ومع ذلك فإنهما يتفقان في السياق ، فقد أملى على الطهطاوى كما أملى على طه حسين الانطلاق من نقطة غائمة قلقة تستدعى الإرادة الفاعلة ، كما تستدعى المحاكاة ، وعلى الرغم من أن الفاصل الزمني بينهما واضح فإن أوجه الشبه بين الطرفين تتضح عند مقارنة كتاب مستقبل الثقافة في مصر لطه حسين بكتاب المرشد الأمين للبنات والبنين لرفاعة ، فبين الكتابين أكثر من صلة وعلاقة .

وبالنسبة لمؤلفات رفاعة فقد قدم إلى المكتبة العربية العديد من المؤلفات التى ترقى إلى مستوى الموسوعات التى لا يستغنى عنها أى باحث أو قارئ يريد فهم المجتمع المصري وتاريخه خلال القرن التاسع عشر . وهذه المؤلفات تؤرخ للعقل المصري في مسيرته الطويلة من الرضا والقناعة إلى التساؤل والبحث ، ومحاولة فهم المجهول الذى يحيط بالإنسان المصري وحياته ، كما قدم بها العديد من النماذج التى تثير في المواطنين الطموح إلى المعرفة والثقافة والمساهمة في خدمة بلادهم على نطاق أوسع . ومن كتب رفاعة الهامة أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل ، وفيه تعرض لعصور الفراعنة والرومان والبطالمة والبيزنطيين وختمه بالفتح العربي لمصر بطريقة جديدة ، نهج فيها منهجا علميا لم ينقص فيها من قدر أمجاد مصر

القديمة أو يلعنها كما كان يفعل سابقوه ، وإنما آمن بأمجاد هذا التاريخ ، ورغب في أن تستعيد مصر أمجادها التى كانت عليها في عهد الفراعنة، وكتب عن سيرة الرسول ﷺ كتابا بعنوان "نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز" تتبع فيه حياة الرسول منذ مولده ومراحل دعوته وهجرته وما يترتب عليها إلى وفاته ، كما قدم دراسة هامة عن المؤسسات السياسية والإدارية والاجتماعية والمالية في الإسلام في محاولة منه للخوض في هذا الموضوع بطريقة علمية ٠ ولرفاعة غير هذين الكتابين مؤلفات لها قيمتها التاريخية ، فحول رحلته إلى باريس كتب تخليص الأبريز في تلخيص باريز "أو الديوان النفيس بإيوان باريز ، وهو عنوان مسجع على نحو ما كان شائعا في ذلك الوقت ، وفيه عرض لرحلته في فرنسا ولحركة الاستنارة الأوربية التى غرستها فيه هذه الرحلة ، فتحدث عن قيام الفرنسيين بخلع الملك شارل العاشر في عام ١٨٣٠م وقيام ملكية يوليو الدستورية ، وتعرض للمبادئ الدستورية التى غرستها الثورة الفرنسية في نفوس الفرنسيين والتي نصت على مبدأ تكافؤ الفرص وما للمواطن الفرنسي من حقوق وما عليه من واجبات ، كما نصت على حرية العقيدة والعبادة وعلى حرية الرأي في حدود القانون والصالح العام ٠

وحول ما يخص آداب عصره كتب "مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية" وهو أول كتاب عربي ينزع إلى الناحية الوطنية ، فيذكر معنى الوطن ومصر ومزاياها ويتعرض لفكرة التسامح الديني والأخوة في الوطن ، كما يتعرض للمنافع العامة ، فيخصص لها أكثر أجزاء الكتاب ، فيذكر الآمال التى يأملها في المنافع العامة في كلمات تحفل بمعاني التكريم والولاء لمصر وشعبها ، فمصر في نظره

أم الدنيا وروضتها ، وأنها دون غيرها من الممالك أعظم تمدينا وتقدما ، كما أن أهلها لديهم درجة عليا من الفنون والمنافع العمومية وهـو مـا تشهد به الآثار المصرية التى تعد من أكبر مصادر الفخر للمصريين بحكم احتوائها على المقومات الأساسية للحضارة من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، كما قسم رفاعة العمل إلى أعمال منتجة وأخرى غير منتجة ، وعزز ذلك بأمثال الحكماء ، وآداب البلغاء وكلام الشعراء ، وفي خاتمة الكتاب يتطرق رفاعة إلى ما يجب على المصريين تجاه وطنهم بأسلوب جمع فيه بين ثقافته الإسلامية وثقافته الفرنسية .

وحول ما يخص تربية الناشئة كتب رفاعة "المرشد الأمين في تهذيب البنات والبنين" وهو كتاب في الآداب والتربية العامة ، وضعه رفاعة ليكون أداة صالحة لتعليم البنين والبنات وتثقيفهم ، وفيه تحدث عن الوطن ، وخصائصه والتمدن والحريات العامة وغيرها ، وإلى جانب ذلك قام رفاعة بإصدار أول مجلة ثقافية علمية تصدر في مصر في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر بالاشتراك مع على باشا مبارك وهى مجلة روضة المدارس المصرية التى صدر العدد الأول منها في الخامس عشر من المحرم عام ١٢٨٧هـ الموافق ابريل ١٨٧٠م وكانت روضة حقه تحفل بثمار جمهرة من الأقلام البارعة ، كما كانت مجالا لتدريب اقلام الشباب على الكتابة الصحفية وقد طرحت هذه المجلة عدة تساؤلات أهمها :

على أى منهج يكون تحول مصر الحضاري ؟ هل نعود إلى الماضي وننعم بالعيش في فردوسه المفقود ، ونقطع كل صلتنا بالحاضر ؟ أم نقفز قفزاً إلى آفاق المستقبل ونقطع كل صلتنا بماضينا

المجيد ؟ وكان الجواب حاضراً تجسده شخصية رفاعة الطهطاوى الذي كان ثمرة ناضجة من ثمار امتزاج الماضي بالحاضر ، وتكوين مركب جديد فيه أنضر ما في الماضي من صفحات ، وأعذب ما في الحاضر من منجزات ٠

وتأتي أهمية هذه المجلة من أنها أول مجلة ثقافية في مصر، كما أنها كانت أداة للتنوير في المشروع النهضوى ، وعلى أي حال فإنه يمكن القول أن التسجيل التاريخي أصبح بفضل جهود الطهطاوى ومدرسته تسجيلاً تاريخياً بالمعني الحقيقي لكلمة التاريخ وذلك نتيجة للمنهج العلمي الذي اتبعه ، والدقة والموضوعية التي سار عليها فقدم لنا بذلك رؤية حضارية للإطار العام الذي سارت عليه النهضة المصرية ، كما فتح الأذهان لما يدور في العالم من أحداث ، مما يجعلنا نعده رائداً من رواد حركة التنوير ، كما نجعل مؤلفاته مصدراً رئيسياً خلال كتابتنا للتاريخ ٠

وإلى جانب ذلك وضع رفاعة رسالة في النحو العربي بعنوان "التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية" جمع فيها القواعد والأحكام النحوية بطريقة واضحة ٠ وهكذا حمل رفاعة مشعل الحضارة فاستطاع من خلال أعماله وكتاباته أن يقدم رؤية دقيقة لكيفية إصلاح أحوال مجتمعه ، بأفكار لم تكن مقتبسة من الثقافة الفرنسية فحسب ، وإنما كانت تمثل قناعات يرى أنها ضرورة من ضرورات رقى الشعوب ، كما أنه يخرج عن حدود الموروث من الشريعة الإسلامية ، وإنما كان يرى أن هذه الأفكار لها أساس من الإسلام ، يضاف إلى ذلك أن رفاعة كان أول من صاغ مصطلح الوطن في إطار الموروث التاريخي لمفهوم الأمة الإسلامية ليضع بذلك حجر الزاوية في بناء الفكرة القومية ، هذا

إلى جانب أنه دعا إلى التسامح الديني بين الأديان ، وناقش عدة قضايا اجتماعية بطريقة موضوعية متزنة بعيدة عن الانبهار بالغرب أو التعصب للشرق .

* *



عبد الله النديم (١٨٤٣- ١٨٩٦)

عبد الله مصباح ابراهيم الأدريسى الشهير بالنديم. ولد بالاسكندرية، ونشأ فى أسرة كادحة حيث لعب الفقر دوره فى حياته الأولى، وتآزرت العوامل التى جعلته يشعر بـ آلام شعبه، فقد كان والده خبازا، وتربى فى مسكن متواضع فى حارة ضيقة من حوارى حى الجمرك القريب من ميناء الإسكندرية وتعلم القراءة والكتابة فى كتاب الحى، ثم استكمل دراسته بالجامع الأنور بالإسكندرية، ولكنه لم يستمر به طويلا خاصة وانه وجد فى نفسه ميلا لدراسة الأدب والإحاطة بالحياة الشعبية وسماع الحكايات والنوادر والأمثال، وتثقيف نفسه ثقافة حرة غير مقيدة بمنهج دراسى أو غيره فارتاد المقاهى والمنتديات الشعبية يستمع إلى شعراء الربابة وزجل الزجالين.

ترك النديم الاسكندرية بحثا عن رزقه بعد أن تخلى والده عنه ورفض الانفاق عليه نتيجة تركه للمدرسة وطاف ببعض البلاد ليجد مكانا على موائد العمد والأعيان ينادمهم ويمتعهم بانشاده، وانطلق لسانه بالزجل مع فريق من الأدباتية خلال مولد السيد البدوى عام ١٨٧٧م مما زاد من شهرته. تعلم صناعة التلغراف، والتحق بمركز التلغراف ببنها ثم نقل الى القصر العالى الذى كان تقيم به الأميرة "خوشيار خانم" والدة الخديو اسماعيل بالقاهرة وخلال ذلك تردد النديم على مجالس الأدباء ورجال الفكر وجالسهم وعندما سمع بمجلس الافغانى التحق به، واستهوته أفكاره الجريئة التى تتردد فيه، وتتلمذ النديم على الافغانى الذى أعطاه من اهتمامه الكثير لثقته أنه سيكون الخطيب المؤثر فى عواطف الجماهير لما لاحظه فيه من نبوغ وقدره على المناظرة والجدل.

وقد تلاءمت أفكار الأفغانى السياسية مع تكوين النديم، كما أنها أوضحت له الرؤية السياسية والوطنية لذلك كان يهرع إلى مجلس أستاذه كلما فرغ من عمله بالقصر العالى واستمر على ذلك حتى فصل من عمله نتيجة لكثرة تغيبه فانتقل إلى ميادين الحياة الفسيحة يضرب فى مناكبها مبتغيا الوسيلة لكسب عيشه، فجاب القرى والمدن حيث اشتغل بالتجارة لفترة ولكن نفسه الثائرة لم تجد استعدادا للعمل بالتجارة فاهملها وعاد إلى مجالس استاذه الذى كان يتحدث عن ضرورة التخلص من الظلم الاجتماعى والحكم الفردى والتدخل الأجنبى والاستبداد الواقع عن أعناق المصريين.

وقد دخل النديم المحفل الماسونى "كوكب الشرق" بالاسكندرية فى عام ١٨٧٨ بتشجيع من أستاذه على أمل أن يجد فيه ما تتوق إليه نفسه من حرية القول وإتاحة تبادل الأفكار، ولكنه انسحب منه بعد أن خاب ظنه فيه، وخلال ذلك كتب فى صحيفتى "مصر" و "التجارة" المقالات التى يبصر الناس عن طريقها بمبادئ الحرية والمساواة ولما علم النديم بوجود جمعية "مصر الفتاة" السرية بالإسكندرية التى تهدف إلى خلع الخديو اسماعيل انضم إليها وخلال ذلك وبينما كان النديم يقوم بدوره فى تعبئة الشعور الوطنى كان رجال الحركة الوطنية من العسكريين يجوبون القرى والمدن تمهيدا لنشر دعوتهم، وجذب شعور الأهالى تجاههم فتقابلوا معه، ودارت بينهم مشاورات انتهت بانضمامه إليهم والوقوف بجانبهم حيث وضع خبرته فى العمل الجماهيرى لخدمتهم. وبعد نجاح العرابيين فى فرض إرادتهم وعزل عثمان رفقى خلال حادث قصر النيل فى ٤ فبراير ١٨٨١ استغل النديم مباركة الشعب لموقف الضباط وأشار على عرابى بطبع منشور يطلب فيه من الأهالى تفويضه فى المطالبة بحقوقه والتحدث باسمه. وقد وافق عرابى على ذلك وكلف النديم بتوزيع هذا المنشور على الأهالى وكان من أثر ذلك قدوم الوفود الشعبية لمبايعة عرابى على تخليصهم من المظالم الداخلية التى يتعرضون لها والمخاطر الخارجية التى يتعرض لها الوطن. وقد أفاد عرابى من هذا التفويض عند قيام مظاهرة عابدين فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ حيث استند على إنابة الأمة له خلال مواجهته للخديو وإلى جانب ذلك فقد شجع النديم على تأسيس جمعية الشبان بالاسكندرية لتكون ركيزة شعبية يمكن للعرابيين الاستناد عليها فى مراحل نضالهم الوطنى، كما أسس صحيفة "التنكيت والتبكيت" التى تناولت مشاكل المجتمع المصرى الاجتماعية والسياسية وبعد ازدياد التدخل الأجنبى فى شئون البلاد استبدل هذه الصحيفة بجريدة "الطائف" التى اهتمت بالأحوال السياسية ذات الطابع الثورى الواضح حتى أصبحت صحيفة الثورة الأولى فكانت منذ صدورها فى يونيو ١٨٨٢ بمثابة لسان حال العرابيين الرسمى وترجمانهم الصحيح وعندما حدثت المعارك بين العرابيين والإنجليز أخذ النديم فى تعبئة الشعور الوطنى. فنظم أسلوب الدعاية للمعركة وضاعف من جهودهم وتحمل المسئولية كاملة، حتى تغير ميزان المعركة لصالح الإنجليز. فأعد النديم عدته للاختفاء، وعلى الرغم من محاولات الحكومة الترصد له والقبض عليه بكافة الوسائل، وإعلانها عن مكافأة كبيرة قدرها ألف جنيه لمن يقبض عليه حيا أو ميتا، وإعدام كل من يؤويه فقد انفرد النديم بمصير له يشترك فيه أحد غيره وهو الاختفاء عن أعين السلطة لمدة تزيد عن التسع سنوات نجح خلالها فى تأليف العديد من الكتب كان أبرزها كتابه "كان ويكون".

وبعد أن تم القبض على النديم في الثالث من أكتوبر ١٨٩١ تم التحقيق معه ومحاكمته، وانتهى الأمر بنفيه إلى يافا بفلسطين حيث شغل نفسه هناك بالتاليف فكتب عن طائفة السامرة كتابا سماه "التذكرة العامرة بأحوال السامرة" كما ألف كتابا اخر بعنوان "النحلة فى الرحلة".

وبعد وفاة الخديو توفيق، وتولية ابنه عباس الثانى أريكة الخديوية صدر العفو عن النديم فى ٣ فبراير ١٨٩٢ فعاد إلى مصر، ومع أن أحواله الصحية كانت قد ضعفت من اثار ما تعرض له أثناء الاختفاء والنفى، ومع انه كان باستطاعته أن يكتفى بما قدم من تضحيات فى سبيل مصر فانه أثر الجهاد وبث روح المقاومة بين فئات الشعب فأسس مجلة "الاستاذ" وساند مواقف الخديو ضد الانجليز، وكشف النقاب عن كراهيته للاحتلال واستطاع عن طريق صحيفته الاستاذ ان يشعل نار الوطنية من جديد، وخلال ذلك اتصل به الزعيم الوطنى مصطفى كامل وتتلمذ عليه، وعرف منه حقيقة التيار السياسى فى البلاد، وكيف شوه رجال الاحتلال مبادئ العرابيين، كما تعلم منه القواعد التى إذا اتبعها يكون وطنيا ناجحا وقد سار مصطفى كامل على هدى تعليمات استاذه فى مراحل كفاحه الوطنى

ونتيجة لذلك بدأت سلطات الاحتلال تشعر بخطورة النديم وتطالب بابعاده عن مصر فعاد النديم إلى منفاه بيافا بعد أن رتبت له الحكومة المصرية معاشا شهريا قدره خمس وعشرون جنيها تصرف له ابتداء من ١٥ يونيو ١٨٩٣ طالما بقى مقيما خارج البلاد المصرية بشرط ألا يكتب شيئا عن مصر لا سياسيا ولا أدبيا.

وما أن وصل النديم إلى يافا لم يستطع الوفاء بشرط الحكومة المصرية بخصوص عدم التحدث فى السياسة فتطرق حديثه إلى مصر وإلى المساوئ التى سببها الاحتلال الانجليزى لها، كما تعرض لسياسة الدولة العثمانية فأخذ ينتقد السلطان الذى لم يقف مع مصر فى محنتها، وأعلن عضيان عرابى للانجليز لذلك فلم تطل مدة اقامته بيافا إذ بلغت السلطان أقواله فأمر باخراجه منها واستقر أمره بسفره إلى الاستانة والتحفظ عليه هناك حتى يكون تحت سمع السلطان وبصره.

وفى الاستانة نال النديم الحظوة لدى المقام السلطانى خاصة وأن السلطان عبد الحميد كان يحاول استرضاء أرباب الأقلام وذوى الأفكار الثائرة ليتقى مهاجمتهم له ويضمن تأييد لسلطته الزمنية، ويعزز بهم مكانته ويوطد سيطرته خاصة وأنه يتمسك بحقوقه فى الخلافة. وهناك التقى النديم باستاذه الافغانى الذى استبقاه السلطان لديه أيضا، واتصلت أسباب الثقة بينهما وقد غاش النديم فى الاستانة معطل المواهب فلا خطابة ولا كتابة، وهو الذى لم يعرف

للهدوء طعما. ولما كان بحاشية السلطان عبد الحميد فى ذلك الوقت الشيخ أبو الهدى الصيادى الذى كان يكره مصر والمصريين، والذى وصل نفوذه إلى كل أرجاء الدولة وكان الجميع يتقرب اليه لنيل رضائه، فان النديم انطلق فى هجائه دون ان يعبأ بقدرته على الانتقام منه فاخذ يخوض فى سيرته بلسان حاد فاضحا دسائسه واتخاذه الدين ستارا لتنفيذ أغراضه حيث كتب كتابا سماه "المسامير" اتهم فيه الصيادى وأسرته بكافة الرزائل والموبقات التى تمس الشرف والنسب مما أثار ثائرة الصيادى وجعله يبلغ السلطان بأمر الكتاب موضحا له ان هجاء النديم شمله كذلك مما دفع السلطان إلى إصدار أوامره بمصادرة الكتاب. ولكن النديم نجح فى تهريبه إلى مصر حيث طبع بها مكونا من مقدمة وتسعة مسامير فى أربعة وتسعين صفحة ومزينا برسوم كاريكاتيرية.

وحول فكر النديم السياسى فقد أيقظ بأفكاره الرأى العام المصرى بعد فترة رقاد فتحدث عن مفهوم القومية، ومبدأ مصر للمصريين وأهمية الوحدة الوطنية، وفكرة الجامعة الشرقية، وأهمية الديمقراطية كأساس للحكم فى مصر، والدستور كنظام له وتكلم عن الأحزاب وأهمية الاهتمام بالرأى العام ، وفكره الجمهورية. وقد استطاع نشر هذه الأفكار والاراء بين أكبر عدد من أبناء وطنه حيث أوتى من المقدرة واللباقة ما مكنه من تبسيط هذه الأفكار إلى العامة الفلاح فى حقله، والتلميذ فى مدرسته، والصانع فى عمله وبذلك اسهم فى تكوين رأى عام - وإن كان محدودا- يتطلع إلى الاصلاح السياسى. وظل النديم على وفائه للعمل السياسى واستطاع ان ينقل أفكاره للكثير من المصلحين والأدباء ورجال الصحافة وكان من هؤلاء مصطفى كامل.

وبالنسبة لموقف النديم من الاصلاح الاجتماعى فقد انشغل بما أصاب قومه من جهل وخرافات وحاول ان ينبههم إلى مضارها لاعتقاده بأن مصر لا يمكن أن تتخلص من السيطرة الأجنبية طالما ظل الجهل معشعشا على عقول ابنائها، فكتب المقالات المطولة والقصص الرمزية والمحاورات التى كتب بعضها بالعامية ليفهمها غالبية ابناء الشعب مصورا فيها الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى تعيشها البلاد وما فيها من عيوب، كما كانت له الخطب الاصلاحية على منابر المساجد، وفى طرقات المدن والقرى والنجوع حيث قام بحملاته المكثفة على البدع وأعمال الشعوذة مطالبا أبناء وطنه بالسعى خلف العلوم بدلا من السير وراء الخرافات .

لقد كان أهم ما فى النديم هو شعبيته، ورغبته الشديدة فى الاجتماع بمواطنيه. فهو رجل خالط الشعب بجميع طبقاته حيث انبعث من غمار عامة الشعب وعانى وذاق ما يعانيه

افراده من فقر وحرمان فالتأم شقاؤه بشقاء أمته، فكانت كلماته تعبيرا حيا عما يدور بخلد الشعب، ثم ارتفع إلى مصاف القادة فلم يفتنه المجد بل عمل على رفع مستوى شعبه الاجتماعى وبعث وعيه الوطنى والعمل على تعليمه فكان اعلم الناس بمحاسن هذا المجتمع وعيوبه.

لقد كان النديم حركة لا تهدأ، وكان رجلا من رجال العمل ورجال القلم، ذكى القلب. سريع الخاطر عاش حياته يتأمل افراح وطنه، ويعانى مشاكله وهمومه فترجم عما يجول بخاطر شعبه.

إن أبرز ما فى النديم هو ذلك النشاط الروحى الزاخر وتلك العزيمة التى لا تكل عن العمل يوما حتى وافته المنية فى غربته بالاستانة.

ففى الثالث عشر من أكتوبر ١٨٩٦ توفى النديم عن عمر يناهز الثانية والخمسين من عمره دون أن يترك أولادا حيث ماتوا جميعا فى طفولتهم.

وقد احتفل بجنازته رسميا فى الاستانة بأمر من السلطان حيث سارت امام نعشه فرقتان من الجيش وفرقه من الشرطة وكبار رجال الدولة والعلماء يتقدمهم جمال الدين الافغانى حيث دفن فى مقبرة "يحى افندى" فى "باشكطاش" بعيدا عن الأهل والوطن الذى عاش من أجله وقاس الكثير فى سبيله وكان العزاء لروحه يوم أن مات أنها سلمت راية الكفاح الى الجيل الجديد وعلى رأسه مصطفى كامل.

وقد كتب عنه كل من احمد أمين فى كتاب زعماء الاصلاح وأحمد تيمور فى كتاب تراجم اعيان، واحمد عطية الله فى كتاب عبد الله نديم، وجرجى زيدان فى كتاب تراجم مشاهير الشرق، وعبد المنعم الجميعى فى كتاب عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية، وعلى الحديدى فى كتاب عبد الله النديم خطيب الوطنية ومحمد أحمد خلف الله فى كتاب عبد الله النديم ومذكراته السياسية ومحمد عبد الوهاب صقر وفوزى شاهين فى كتاب عبد الله النديم، ونجيب توفيق فى كتاب عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية، ونفوسه زكريا فى كتاب عبد الله النديم بين الفصحى والعامية

أحمد لطفى السيد

(١٢٨٩ - ١٣٨٣هـ ١٨٧٢ - ١٩٦٣ م)

أحمد لطفى بن السيد أبى على ينعت باستاذ الجيل كانت حياته فسيحة متعددة الجوانب، فكان رسولا للفكر الليبرالى، وفيلسوفا للجيل، ورجل أمة عاش لوطنه، ومن أجله، فأسهم فى توجيه الحياة السياسية، والاجتماعية فى مصر توجيها وطنيا مخلصا، كما أسهم فى تقدم العلم والتعليم، ووضع اللبنات الأولى لانشاء مجمع اللغة العربية .

ولد أحمد لطفى السيد فى قرية برقين بمركز السنبلاوين دقهلية فى ١٢٨٨هـ (٧ شباط/ فبراير ١٨٧٠م)، فى اسرة مصرية تنتمى إلى البرجوازية الريفية، وهى الطبقة التى كان ينتمى إليها معظم قادة النهضة الفكرية فى مصر فى أواخر القرن التاسع عشر وهناك بدأ حياته وتعليمه الأولى، ثم تدرج بعد ذلك فى مراحل التعليم حتى تخرج من مدرسة الحقوق الخديوية فى عام ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م. ولما كانت وظائف القضاء تنتظر اولئك الخريجين فقد عين لطفى السيد فى سلك النيابة، واخذ يترقى فيه حتى وصل إلى منصب وكيل نيابة فى عام ١٣١٨هـ ١٩٠٠م. وخلال ذلك فكر لطفى السيد فى انشاء جمعية سرية بهدف تخليص مصر من الاحتلال. وقد تأسست هذه الجمعية فى عام ١٣١٤هـ/١٨٩٦م وأطلق عليها جمعية تحرير مصر.

ثم سافر إلى سويسرا بناء على طلب الخديوى عباس الثانى لاكتساب الجنسية السويسرية، والعودة إلى مصر لتحرير جريدة تقاوم الاحتلال تحت الحماية السويسرية حتى يحول دون اعتراض انجلترا على ذلك، وبعد ان عاد إلى مصر قدم تقريرا إلى الخديو يتلخص فى ان مصر لايمكن ان تستقل إلا بجهود ابنائها، وان من المصلحة أن يرأس الخديوى حركة شاملة للتعليم العام .

وفى اعقاب ذلك عاد لطفى السيد للعمل فى النيابة، ثم استقال منها وعمل بالمحاماة مع صديقه عبد العزيز فهمى (انظر المجمعيون، ص ٤٢).

وقد شارك لطفى السيد فى تأسيس "حزب الامة" وادارة صحيفة الجريدة لسان حال هذا الحزب، وسرعان مالمع اسمه بصفته واحدا من كبار الكتاب، وكان مكتبه بالصحيفة منتدى يلتقى فيه السياسيون والكتاب يتناقشون معه فى ظروف الوطن وأحواله. واستمر لطفى السيد يزاول هذا العمل حتى قامت الحرب العالمية الاولى فعاد إلى العمل الحكومى حيث عين رئيسا لنيابة بنى سويف فى عام ١٣٣٤هـ/١٩١٥م، ثم انتقل بعد ذلك للعمل كمدير لدار الكتب المصرية. وفى هذا المكان اخذ يترجم مؤلفات ارسطو لأن النهضة العلمية فى رأيه لاتتم دون

الاعتماد فى بادىء امرها على الترجمة قبل حركة التأليف (انظر قصة حياتى، ص ١٦٠). خاصة وأنها تمهد لها كما حدث فى عصر النهضة الاوربية.

ويرجع اختيار لطفى السيد لترجمة مؤلفات ارسطو إلى ميله إلى الفلسفة والمنطق، واعتقاده أيضا أن ارسطو كان أول من ابتدع علم المنطق، وأنه أكبر مفكر له أثر خالد فى التاريخ (انظر احمد لطفى السيد استاذ الجيل، ص٨٣). وفى نوفمبر ١٩١٨ استقال لطفى السيد من دار الكتب ليشترك فى تأليف الوفد المصرى الذى تولى قيادة البلاد فى ثورة ١٩١٩ ثم عاد ثانية إلى دار الكتب بعد خلافه مع سعد زغلول. وقد عمل لطفى السيد بالجامعة المصرية القديمة عضوا فى مجلس ادارتها، ثم وكيلالها. وعندما تأسست الجامعة الحكومية فى عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م عين لطفى السيد مديرا لها واستمر فى هذا المنصب حتى عام ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م فيما عدا فترات قضاها فى الوزارة وغيرها. وفى عهده كانت الجامعة مصدرا للاشعاع فى شتى الميادين، فسايرت حركات التطور الاجتماعى والاخذ بيد حركات التجديد. فقد وافق لطفى السيد على قبول الفتيات المصريات طالبات فى الجامعة فى غفلة من المحافظين على التقاليد مما كان له أثره فى دخول المرأة معترك الحياة العامة، ومشاركتها للرجل فى هذا المجال.

ومع سعة اطلاع لطفى السيد، وتمكنه فى العلم فقد كان يستمع إلى كل رأى مهما كان مخالفا لرأيه او عقيدته لاقتناعه بان الحرية الحقيقية تحتمل ابداء كل رأى، ونشر كل مذهب وترويج كل حقيقة. لقد كان ذلك شعاره الذى غرسه ونماه فى الجامعة فعلم الاجيال معنى الحرية والثقة فى الاعتماد على نفسها.

ومعنى ذلك ان الديمقراطية التى دعا إليها لطفى السيد لم تكن ديمقراطية السياسة، بقدر ما كانت ديمقراطية الفكر بكل أشكاله الاجتماعية والاقتصادية والفنية. لقد كان لطفى السيد يؤمن بالتطور،كما كان يؤمن بالحرية لذلك لم يرض أن يأخذ الأمور بالقسربل كان يود دائما ان يتعهدها وينميها لتثمرثمراتها الطبيعيةسليمة قوية.(انظرصفحات من التاريخ،ص.ص ١٠٤،١٠٥)

وإلى جانب ذلك فقد حرص لطفى السيد أثناء رئاسته للجامعة على أبعادها عن كل التيارات والتأثيرات التى تحاول النيل من استقلالها فوقف بجانب الدكتور طه حسين اثناء ازمة كتاب "فى الشعر الجاهلى" مراعيا فى ذلك المبادىء الاساسية للتعليم الجامعى، والشرف العلمى لاعضاء هيئة التدريس بالجامعة فقابل سعد زغلول رئيس مجلس النواب من أجل رأب الصدع، ونجح فى ذلك إلى حد كبير، وظل صامدا أمام الزوابع حتى لم تستطع الضجة التى أثيرت حول هذا الكتاب النيل من الجامعة (انظر الجامعة المصرية والمجتمع، ص.ص ٦٣-٦٩)

كما وقف لطفى السيد بالمرصاد لكل من حاول الانتقاص من هيبة الجامعة وكرامتها او استقلالها فعندما نقلت حكومة اسماعيل صدقى الدكتور طه حسين من الجامعة إلى وزارة المعارف على غير ارادته وارادة الجامعة قابل لطفى السيد رئيس الوزراء، وأوضح له ان ماحدث يتنافى مع التقاليد الجامعية، ويسئ إلى الجامعة، وطالب بعودة طه حسين إلى الجامعة، ولما لم يجب إلى طلبه قدم استقالته من الجامعة، ولم يرجع إليها إلا بعد استقالة حكومة صدقى وإعادة طه حسين إلى كلية الآداب.

وحول دور لطفى السيد فى مجمع اللغة العربية، فان المجمع يدين له بفضل كبير خاصة وانه تبنى فكرة نشأته، وخصص لاعضائه قاعة فى دار الكتب قبل ان يولد رسميا، وشغل منصب كاتب سره،وإلى جانب ذلك فقد استمر فى دعوته لانشاء مجمع تقوم الدولة باعبائه حتى صدر مرسوم بانشائه فى عام ١٩٢٣ (انظر مجلس المجمع: الدورة ١٩٥٩/٢٥، ص ٩٨).

وفى مجمع اللغة العربية استأنف لطفى السيد جهوده المجمعية فاشترك فى كثير من لجانه وتولى رئاسته، ونظرا لجهوده الرفيعة فى مجال العلم والادب والثقافة رشحه مجلس المجمع لجائزة الدولة التقديرية فىالعلوم الاجتماعية وقدحصل عليها فى عام ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م

لقد كان لطفى السيد قمة من قمم التجديد والبعث الفكرى فى مصر كما كان موضع احترام خصومه ومعارضيه فعلى الرغم من انه اختلف معهم وهوجم فى كثير من مواقفه الفكرية، فقد كان يتغلب على مناظريه او معارضيه بمبدأ جليل من مبادئ حرية الفكر التى كان يدافع عنها وهو المبدأ الذى يتجلى فى كلمة المشهورة " الخلاف فى الرأى لايفسد للود قضية" وقد ذهبت هذه الكلمة مثلا.

لقد احترمه خصومه قبل ثورة ١٩٥٢ كما احترمه قادة ثورة ١٩٥٢ لدرجة ان جمال عبد الناصر ذهب إلى بيته بعد الغاء النظام الملكى ليعرض عليه رياسة الجمهورية فكان رده الفلسفى " إن الذين ارسوا قواعد هذا النظام الجديد بجهدهم هم أولى الناس بادراته، وإن الثورة لاتنجح الا اذا كان قائدها هو رئيس الجمهورية (انظر الاخبار فى ١٩٦٣/٣/٦).

وهكذا عاش لطفى السيد حياته كلها من أجل بلاده واعلاء حرية الفكر فيها، ومن أجل خدمة قضاياها لدرجة يمكن معها القول ان حياته كانت سيرة أمة فى قرن من الزمن.

د. محمد حسين هيكل

النابهون الذين يسبقون عصرهم ، ولا يعيشون الحاضر بعقل الماضى قليلون فى كل جيل وكل زمان ومكان.

وعظماء المفكرين الذين يأثرون العيش فى خلوتهم بين فكرهم وكتبهم معدودون والدكتور هيكل واحد من هؤلاء .

قال عنه المؤرخ المصرى محمد شفيق غربال انه " كان ممن وجهوا الرأى وخاضوا معاركه . وله فى الأدب والصحافة والسياسة آثار باقية على الدهر ".

وقال عنه الدكتور طه حسين عميد الأدب العربى انه " ذلل القصة لكتابها ، وذلل السياسة الصحفية لكتابها ، وشارك زملاءه ومعاصريه فى تذليل اللغة العربية وتمكينها من أن تكون ملكا للذين يتكلمونها[١] "

لقد كان الدكتور هيكل موسوعيا متعدد المواهب ، كما كان لآثاره ودراساته مقامها المحمود بين كبار معاصريه ، فبالرغم من أن مجال دراسته التخصصى الذى حصل فيه على الدكتوراه كان القانون فانه لم يحصر نفسه فيه بل كان سياسيا بين الساسة ، ومفكرا بين معاصريه من المفكرين وأديبا مرموقا ترك للعربية تراثا متميزا فى مجال الآدب الرفيع ونتيجة لذلك فان آثاره شاركت فى تغيير وجه الحياة المصرية إلى حد كبير ، وأخذت على عاتقها مهمة التنوير العقلى خاصة وانها فتحت أبواب الاحتكام إلى العقل ، والتوفيق بين العلم والدين ، والانتهال من منابع الفكر الأوربى ، وحاولت التغلب على الحواجز والعقبات المتوارثة ، والمشاركة الفعالة فى حركة البعث والتنوير ، وإضاءة مشعل الفكر الليبرالى الحر .

ولد الدكتور هيكل فى كفر غنام دقهلية فى اغسطس ١٨٨٨ ، وبدأت مواهبة الكتابة عنده مبكرة فكان وهو طالب يقضى اجازته الصيفيه فى قريته " كفر غنام " دقهلية ، ويصدر خلالها مجلة سماها " الفضيلة " وكان يوزعها على القراء فى قريته ، وفى القرى المجاوره[٢].

ثم اخذ يكتب فى " الجريدة " التى انشأها لطفى السيد وكانت لسان حال حزب الأمة منذ انشائها فى عام ١٩٠٧ إلى أن احتجبت عن الصدور فى عام ١٩١٥ كما كانت له فى الهلال والأهرام والمقتطف مقالات سياسية ذات طابع متميز عبر فيها عن تطلعات الشعب المصرى فى الحرية والاستقلال ففى الوقت الذى كان الشعب المصرى ينشد الحرية باحساسه علّمه هيكل فى مقالاته كيف ينشدها بعقله وفكره ، وكيف أنها تتلخص فى أن، يفعل الانسان ما شاء على ألا يعتدى على حرية غيره ، وكيف ان معناها الصحيح ينحصر فى أن يكون الكلام أداة الناس إلى التفاهم وإلى النضال ، لأن ذلك هو غاية الحرية ، وأن الحرية تصبح كلمة يحترمها الناس ما لم تتعارض مع هواهم فاذا عارضت ذلك الهوى نزعت ثوب انسانيتهم ، وانقلبوا إلى حيوانات تناضل بالسلاح .

١- د. محمد مهدى علام : مجمع اللغة العربية فى ثلاثين عاما – المجمعيون – القاهرة ، ١٩٦٦ ص ١٧٠.
٢- مهدى علام : مرجع سابق ص ١٦٩.

ومعنى ذلك أن حرية الانسانية فى نظر هيكل هى التى تجعل من الكلام أداة التعامل الانسانى وإذا وصلت الانسانية إلى هذا الادراك لمعنى الحرية كان للحرية معناها الصحيح (١) .

وفى الوقت الذى لم يعرف فيه الناس معنى الديمقراطية شرح لهم هيكل فى احدى مقالاته السبيل اليها مبينا أن الديمقراطية اساسها الحرية الفردية ، وان الحرية هى أن يعمل الفرد جهد طاقته وان يستمتع بنتائج عمله وان ايمان الناس بالحرية يعنى استعدادهم للتضحية فى سبيلها (٢) .

ومع ايمان هيكل بالحرية الفردية فقد كانت تنتابه لحظات ضيق عندما يتذكر حال الوطن وتعثر قضيته والوجود الاجنبى الجاثم على صدر بلاده فكان يتساءل فى ألم ما قيمة الحرية الفردية إذن والوطن يخضع لهذه المذله . وكبار رجالاته يعانون هذا الهوان (٣) .

كما تعرض هيكل لقدرة الرأى العام على حماية الديمقراطية فذكر أن الأمم القوية هى التى يحكم فيها الرأى العام على الحاكم والمحكوم جميعا . وفيها تعتبر الحكومة وكيلة عن الشعب ، فاذا هى خرجت عن حدود الوكالة حاسبها حسابا عسيرا وقام باسقاطها

وانه فى الأمم القوية لا يستطيع أحد أن يعصف بالديمقراطية أما فى الامم الضعيفة فانها تعتبر الحاكم سيدا لها لا وكيلا عنها (٤) .

وفى الوقت الذى ترددت فيه الدعوة الى احياء التراث العربى وإلى بعث آثار السلف دعا هيكل فى مقال له إلى احياء هذا التراث وبعثه باعادة نشر ما فيه بلغة هذا العصر وأسلوبه على أن يتعاون المثقفون فى انحاء الوطن العربى فى هذا الاحياء المثمر واستند فى ذلك على قاعدة اساسية وهى أن من لا ماضى له لا مستقبل له ، وانه بالتعاون على احياء التراث العربى نستطيع أن نخدم الحقيقة ، ونخدم الانسانية ، ونخدم الشرق العربى بان نخرجه من حالة الاعتماد على غيره ليبدأ عصرا جديدا هو عصر الحرية والنور والتضامن مع سائر الانسانية فى سبيل خير الانسانية (٥) .

وبعد أن تكون حزب الأحرار الدستوريين فى عام ١٩٢٢ وقع الاختيار على الدكتور هيكل ليرأس جريدة السياسة لسان حال الحزب فشارك فيها بجهوده ، كما كان يحرص على كتابه المقال السياسى بها والذى تعرض فيه للحياة السياسية فى مصر ، ورصد التطور الذى اصاب المجتمع المصرى نتيجه احتكاكه بأوربا وما صاحب ذلك من تطور فى شتى مناحى الحياة.

ومنذ ذلك الوقت ودع هيكل المحاماة ، وقصر بقية حياته على الصحافة والسياسة والتاليف ، وظل رئيسا لتحرير السياسة حتى بعد ان تحولت إلى اسبوعيه فى عام ١٩٢٦ وأصبحت وبحق مدرسة جامعة لنشر الأبحاث السياسية والأدبية ، وبها نشر هيكل كتابه " حياة محمد " فى عدة مقالات عام ١٩٣٥ وقد

١- الهلال : نوفمبر ١٩٣٦ ص ١١ ـ ١٤ مقال للدكتور هيكل بعنوان " الحرية ومدلولها الانسانى ".
٢- السياسة فى ١٧ يناير ١٩٤٨ محاضرة للدكتور هيكل فى نادى الحزب تحت عنوان " الديمقراطية والنظام البرلمانى ".
٣- هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية جـ ٢ ص ١٧.
٤- الهلال : مجلد ١٩٣٦ ص ٤٨٥ -٤٨٨ مقال للدكتور هيكل بعنوان " أثر السياسة فى اخلاق المجتمع ـ السياسة تنهض باخلاق الامم القوية ".
٥- الهلال : فى ابريل ١٩٣٥.

اختير هيكل نائبا لرئيس حزب الاحرار الدستوريين فى عام ١٩٤١ كما أصبح رئيسا للحزب فى عام ١٩٤٣ وحتى تم الغاء الاحزاب فى اعقاب ثورة ١٩٥٢ وخلال ذلك كان له دوره الطليعى فى إدارة دفة الحزب ، كما كان له وزنه فى توجيه السياسة المصرية فى فتره من احرج مراحلها .

للدكتور هيكل مؤلفات عديدة نذكر منها كتابه " تراجم مصرية وغربية " الذى طبع بمطبعة السياسة فى عام ١٩٢٩ والذى يعد البدايات الأولى لكتابه السير والتراجم السياسية التى كانت تفتقر اليها المكتبة العربية فى ذلك الوقت .

وقد استطاع الدكتور هيكل أن يصور ببراعة الاشخاص المترجم لهم ، والعصور التى عاشوا فيها بطريقة واضحة المعالم متسقة الاجزاء شملت حلقات من التاريخ المصرى القديم والحديث كما شملت شخصيات من الغرب تركت بصمتها فى تاريخ الانسانية.

وعن الشخصيات المصرية التى ترجم لها فقد ترجم لكليوباترا آخر ملوك البطالمة فى مصر وتعرض لاثرها فى تاريخ مصر والامبراطورية الرومانية وترجم للخديو اسماعيل الذى تعرضت مصر على عهده للكثير من التطورات والأزمات ، ولمصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ، ولقاسم أمين نصير المرأة ، ولبطرس غالى الذى كان اغتياله نذيرا بالعديد من المشاكل التى كادت أن تعرض مصر للخطر ، ولقدرى باشا صاحب المؤلفات الشرعية والذى له أكبر الأثر فى تقنين احكام الشرع فى المعاملات والأوقاف والاحوال الشخصية ولاسماعيل صبرى الذى يعتبر شعره على قلته آيه فى الجمال الذى تهتز له النفوس ولثروت باشا رئيس وزراء مصر

والشىء اللافت للنظر والداعى الى الاستغراب أن الدكتور هيكل لم يشمل كتابه على ترجمة لسعد زغلول أو لرشدى باشا على الرغم من دور كل منهما المؤثر فى تاريخ مصر ،

والى جانب ذلك فقد انتقد هيكل مصطفى كامل وجريدة اللواء واتهمها بالتخلف لعدم مناصرة قاسم أمين فى آرائه الاجتماعية وأرجع ذلك إلى رغبه مصطفى كامل فى تملق الشعب فيما هو عزيز عليه من عادات واوهام لاستغلاله فى الغايات السياسية ، وبأنه يزن الأمور والحقائق بنتائجها لا بقيمتها الصحيحة ولا بما تحويه.

وعن الشخصيات الغربية التى تعرض لها الكتاب فقد اشتملت على تراجم لبتهوفن الموسيقى الألمانى البارع وتين الناقد ، وشكسبير وشيلى الشاعرين مما يوضح تمكن الدكتور هيكل من الآداب الغربية بالاضافة الى مقدرته الفائقه فى الموازنه والاستنتاج.

وهكذا تغلغل الدكتور هيكل فى روح المترجَم وعصره واستطاع أن يستبدل قلمه بريشه المصور واصباغه وقماشه وخطوطه حتى اخرج لنا صورا بارعه كشفت ماكان خافيا علينا من أمور ، وفى يقيننا أنه لا يستطيع القيام بهذا العمل الا من له قدرات راسخه فى علمى النفس والتاريخ وفى الاداب أيضا.

وظل الدكتور هيكل يواصل نشاطه حتى توفاه الله فى الثامن من ديسمبر ١٩٥٦.



د. محمد حسين هيكل

محمد طلعت حرب

زعيم مصر الاقتصادى

إن حياة طلعت حرب تعد جزءا من تاريخ مصرالحديث ، فقد وهب نفسه لهذا الوطن وكان رجلا إتسعت همته لآمال وطنه ، فكان سابقا على عصره وكان قلبه مسكونا بحب مصر ، وطنيته كانت وطنية العمل لا وطنية القول ، وطنية البناء لا وطنية الهدم . نقل مصر من الاقتصاد الفردى الى الاقتصاد الذى تديره شركات ومن المشروعات الاقتصادية التى يدرها أجانب الى مشروعات وطنية ومن الورش الصناعية الصغيرة الى المصانع الكبيرة مثل مصانع المحلة الكبرى وغيرها ، ومن القول ان مصر بلد زراعى لا تصلح للصناعة الى اهمية وجود صناعة وطنية والى عدم الاعتماد على محصول واحد.

ولد عام ١٨٦٧ فى قصر الشوق بالجمالية وتخرج من مدرسة الخديوية عام ١٨٨٩ وعمل بقلم القضايا بالدائرة السنية خلفا لمحمد فريد ، ثم بالشركة العقارية المصرية

كان وطنيا غيورا على مستقبل بلاده الذى استفحل فيه النفوذ الأجنبى خاصة بعد أن ارهقت الامتيازات الأجنبية كاهله فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ولجأت مصر إلى الاستدانه من البنزك الأوربية.

ونتيجة لفشل الخديو اسماعيل فى تسديد ديون مصر تدخلت الدول الأوربية فى شئون البلاد بحجة المحافظة على أموال رعاياها فأرسلت بريطانيا بعثة برئاسة الخبير المالى كيف " Cave " لدراسة أحوال مصر المالية.

وقد اقترحت هذه البعثة وضع الحكومة المصرية تحت المشورة الأوربية وفى محاولة من فرنسا لمسايرة إنجلترا فى ذلك المجال وافق الخديو على انشاء صندوق الدين بهدف جمع المبالغ المخصصة للديون من المصالح الحكومية ، وتسديد اقساطها وما يستحق عليها من فوائد .

ونتيجة لعدم اقتناع الدول صاحبة الديون بهذه الإجراءات تشكلت لجنة مالية مختلطة لمراقبة حسابات الحكومة أطلق عليها بعثة " جوشن وجوبيير " كما اضطر الخديو للموافقة على تعيين وزيرين أوربيين فى الوزارة أحدهما للمالية والآخر للاشغال.

وفى محاولة لوقف انهيار البلاد الاقتصادى اجتمع بعض كبار التجار المصريين فى ابريل ١٨٧٩ فى محاولة لتخليص الوطن من أسر الديون بافتتاح بنك وطنى يكون رأسماله أربعة عشر مليونا من الجنيهات تجمع من سائر أبناء الأمة على أقساط ، وقد تقدم هؤلاء إلى الحكومة بمذكرة تفسيرية عن هذا البنك ذكروا

فيها ان ادارة البنك ستكون ادارة وطنية ، ولكن هذه الفكره سرعان ما خمدت نتيجة للأحتلال البريطانى لمصر فى عام ١٨٨٢ [١] ، وقيام الانجليز بوضع نظام مالى يكفل سداد اقساط الديون على حساب حاجات الشعب ، وسيطرتهم على مالية الدولة وتأسيسهم البنوك الاجنبية وشركات الرهون العقارية والشركات المالية والزراعية وغيرها [٢].

وهكذا ظلت مرافق مصرالاقتصادية والمالية ، فى حالة تبعية للانجليز وأتباعهم الى أن دعا طلعت حرب الى انشاء بنك مصر فى اعقاب الحرب العالمية الأولى [٣].

وبعد قيام ثورة ١٩١٩ ، تطلع الشعب المصرى إلى الاستقلال الاقتصادى إلى جانب الجهاد فى سبيل الاستقلال السياسى وكان من نتائج ذلك أن لقيت دعوة طلعت حرب إلى تأسيس بنك مصر تأييدا وتعضيدا من طبقات الشعب فى العواصم والاقاليم حتى تكللت دعوته بالنجاح [٤] واصبح اسمه مقرونا ببنك مصر فاذا قلت طلعت حرب فقد قلت بنك مصر والعكس صحيح.

فقد صدر المرسوم بتأسيس شركة مساهمة مصرية تسمى بنك مصر فى عهد وزارة يوسف باشا وهبه فى ١٣من ابريل ١٩٢٠ أى بعد مضى حوالى عام على ثورة ١٩١٩ ، وتم عقد الشركة بين ثمانية من ذوى الأملاك من المصريين منهم المسلم ومنهم القبطى ومنهم اليهودى فيوسف اصلان كان يهوديا واسكندر مسيحه نصرانيا واحمد مدحت يكن ، ومحمد طلعت حرب ، وعبد العظيم المصرى وعبد الحميد السيوفى وفؤاد سلطان وعباس بسيونى كانوا من المسلمين [٥].

وقد اتفق الموقعون على تأسيس شركة مساهمة مصرية تسمى "بنك مصر" ويكون مركزها القاهرة بهدف القيام بالاعمال البنكية.

١- عبد المنعم الجميعى : مصر فى التاريخ الحديث والمعاصر ص ٣٣٨.

٢- الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ، القاهرة ، النهضة المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٤٨ ص ١٨٤-١٨٨.

٣- انور الجندى : اعلام واصحاب أقلام ص ٢٠٣- ٢١١.

٤- الرافعى : فى اعقاب الثورة جـ ٢ ص ٣٠٣.

٥- وقد استمر هذا التقليد قائما بعد ذلك فالماليون اليهود كانوا اعضاء بمجلس الإدارة ممثلين فى اكثر من شخص كاصلان قطاوى ، وشيكوريل كانا من اليهود ، وتوفيق دوس ، وصادق قلينى كانا من النصارى ومن اقرب الناس إلى طلعت حرب.

وقد بدأ راسمال الشركة بثمانين الف جنيه مصرى موزعة على عشرين ألف سهم بمعنى ثمن السهم أربعة جنيهات ، واشترط فى عقد تأسيسه ان يكون حمله أسهمه من المصريين مما كفل له الصفة القومية.

وجاء فى عقد التأسيس أن مدة هذه الشركة خمسون عاما ، وان يقوم بادارتها مجلس ادارة مكون من تسعة أعضاء على الاقل ومن خمسة عشر عضوا على الأكثر تنتدبهم الجمعية العمومية ، وانه بوجه الاستثناء يتم تعيين المؤسسون اعضاء بالمجلس الأول ، وتولى احمد مدحت يكن باشا رياسة مجلس الادارة منذ نشأة البنك حتى عام ١٩٤٠ ، كما عين طلعت حرب نائبا للرئيس [٦] وقد أعلن طلعت حرب فى خطاب افتتاح البنك فى السابع من مايو ١٩٢٠ ان بنك مصر سيعمل على تنظيم الحالة التجارية وانشاء الغرف التجارية ، وترقية التجارة والصناعة واقامة صرح مصرى صناعى ، وان المصريين أرادوا ان يكون لهم بنك يعمل عمل البنوك الاجنبية ويخدم مصر ويضع يده فى يد كل ناهض بمصر الى الامام.

وهكذا ولد بنك مصر كثمرة اقتصادية لثورة ١٩١٩وكان ميلاده البداية الحقيقية لميلاد الراسمالية الوطنية المصرية كما كان نجاح رسالته إمتحانا قاسيا لكفاءة المصريين ومدى مقدرتهم وتمسكهم بحقوقهم وغيرتهم على واجبهم ، وكان المصريون امام إمتحان عسير يمثل الدفاع عن كرامتهم وسمعتهم كشعب يأبى الاستغلال الاقتصادى ولم يكن الموقف مقصورا على ١٢٦مصريا الذين اشتروا أسهم بنك مصر ودفعوا ثمانين الف جنيه رأسمال البنك عند انشائه ، بل كان صمود البنك صمودا لإرادة الشعب المصرى على التحدى وقد صمد البنك ، وبدد اسطورة ان مصر بلدا زراعيا ولا يمكن ان تنجح فيه صناعة ، كما صمد حتى تزايد راسماله الى مليون جنيه فى عام ١٩٢٧ ، ثم الى ملاين من الجنيهات بعد ذلك وظل هذا البنك بنكا وطنيا بكل معانى الكلمة فاخذ يؤدى رسالته ويتدرج فى سبيل التقدم والنمو ، فانشأ فروعا له فى معظم المدن المصرية الهامة وتضاعف راسماله والى جانب ذلك فقد صار بنك مصر إلى جانب اعماله المصرفية النواة الاقتصادية والمالية لنهضة الصناعات الوطنية.

فقد انشأ عدة شركات مصرية ، وكان لها بمثابه اداة التوجيه والتمويل . نذكر منها شركة مصر لغزل ونسيج القطن بالمحلة عام ١٩٢٧ والتى تعد أهم عمل صناعى قام به بنك مصر حيث قام باحياء صناعة الغزل والنسيج بالمحلة بانشائه للمصانع الكبرى بها والتى تعد الابنة البكر لهذا البنك كما كانت أكثر شركات بنك مصر نجاحا واعظمها أثرا واكثرها اتساقا مع الاقتصاد القومى الذى يقوم أساسا على القطن [٧] والى جانب ذلك فقد انشأ بنك مصر شركة مصر لغزل ونسج القطن بكفر الدوار فى

٦- محمود متولى : الأحوال التاريخية للراسمالية المصرية وتطورها ص ١٨١ - ١٨٢.

٧- طلعت حرب : بحث فى العظمة ص ١٣٩.

عام ١٩٣٨ وجند من الفلاحين الطلائع الأولى للعمل بمصانع هذه الشركة ، مما أدى للعديد من الخدمات الهائلة للمستهلك المصرى يضاف الى ذلك ان بنك مصر انشأ العديد من الشركات التى احيت صناعات مصرية عديدة وحررت جانبا مهما من الاقتصاد المصري من التبعية الاجنبية منها شركة مطبعة مصر ، وشركة مصر للنقل والملاحة النهرية ، وشركة مصر للتمثيل والسينما التى تبناها طلعت حرب رغبة منه ، فى تمصير هذه الصناعة ، والتى تم أفتتاحها عام ١٩٢٧ ، والتى قامت بتأسيس ستوديو مصر ، كما قامت ببناء مسرح الازبكية التى كان يعد ثانى مسرح بنى للتمثيل بعد مسرح الأوبرا ، والشركة المصرية لصناعة الورق ، والشركة المصرية لمصايد الاسماك ، وشركة مصر للسياحة وغيرها وفضلا على ذلك فقد انشأ طلعت حرب شركة مصر للطيران والتى ارتفع من خلالها علم مصر واسمها فى الجو ، وتمكن المصريون من ركوب الطائرات ولأول مرة.

وقد شجع نجاح هذه المنشأت المصريين على استثمار أموالهم فى الصناعة والتجارة ، وصارت الى جانب بنك مصر الذى علم الالوف من المصريين العمل المصرفى صارت مدارس لتعليم المصريين كيفية ممارسة شئونهم المالية والاقتصادية وحررت عقولهم الادارية من رقبة الروتين الحكومى (٨) .

وعلى الرغم من حملات النقد والتشكيك المتكررة ضد البنك فقد ادت معظم شركاته خدمات هائلة للمصريين خاصة فى فترة الحرب الثانية خاصة بعد ان إضطرد انتاجها وأصبح قادرا على المنافسة الاجنبية .

وفيما يلى نعرض لمبادئ واهداف البنك وسياسته الاقتصادية

تمصير الأعمال المصرفية : اقتصار ملكية الاسهم على المصريين مكنت البنك من خدمة المصالح الاقتصادية الوطنية

نشر الوعى المصرفى وتجميع المدخرات الوطنية

- استعمال اللغة العربية فى معاملاته.
- فتح مجالات امام المصريين من حيث نوع العمل والخبرة المصرفية .
- تجميع المدخرات الوطنية ووضعها فى خدمة المشروعات الاقتصادية المصرية شجع الكثيرين من المصريين المكتتبين الذين كانوا يرفضون الحصول على الفائدة خشية ان يكون لها صفة الربا.
- لم يتردد البنك فى الاستفاده من المميزات الاجنبية فاستدعى الكثيرين من الخبراء الاوربيين لدراسة مشروع غزل القطن ونسجه ، وشركة الطيران المدنى ومع ذلك كانت الافضلية للمصريين

٨- الجدير بالذكر ان مصر شهدت فى اعقاب ثورة ١٩١٩ ظهور بنك التسليف الزراعى الذى اسس فى عام ٩٣١ وتفرع منه بنك التسليف العقارى ١٩٣٢.

وقد استطاع البنك فى فتره لا تزيد عن العشرين عاما ان يقدم لمصر عددا من المشروعات بلغت فى عام ١٩٤٠ تسعه عشر مشروعا بالاضافة الى بنك مصر - لبنان .

لقد تبين لطلعت حرب بحاسة الاقتصادى والسياسى معا أن البلاد العربية وحدة اقتصادية بقدر ماهى وحدة ثقافية ، وانه عن طريق ذلك يمكن تحقيق وحدة عربية وان بنك مصر يستطيع ان يفعل فى هذا المجال الكثير وكان لتتابع زيارات طلعت حرب لسوريه ١٩٢٥ والحجاز ١٩٣٠ والسودان ١٩٣٨ اثره فى اختمار الفكرة فنشأ بنك مصر سوريا – لبنان ثم كانت أعمال بنك مصر الكثيرة فى الحجاز بشراء البواخر كوثر وزمزم واعدادها لنقل الحجاج ، كما كان لسفر طلعت حرب الى السعودية بدعوة من الملك عبد العزيز أكبر الأثر فى ازالة الفجوة مع الملك فؤاد

والى جانب دور طلعت حرب فى بناء الاقتصاد المصرى الحديث فقد كان مفكرا وكاتبا متميزا فله العديد من الكتب نذكر منها كتاب " تاريخ دول العالم والاسلام " ، وكتاب " تربية المراه والحجاب " ردا على كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين ، وكتاب " فصل الخطاب فى المرأة والحجاب " وكتاب " علاج مصر الاقتصادى وانشاء بنك للمصريين " كما وقف ضد مشروع امتياز قناه السويس الذى رأى الانجليز إضافة مده اربعين عاما مقابل اربعه ملايين من الجنيهات.

ازمة بنك مصر ١٩٣٩

فى اواخر اغسطس ١٩٣٩ اضطربت الحالة الدولية لظهور بوادر الحرب الثانية مما ترتب عليه زيادة الطلب على السحب للودائع من البنوك . وقد تعرض بنك مصر كغيره من البنوك لهذا التهافت على الودائع مما ادى الى عجز فى السيولة النقدية للبنك ، وبدأ موقف البنك يتأرجح حتى تدخلت الحكومة فى عام ١٩٤١ لوقف السحب وضمان الودائع فى البنك واشترطت اقصاء طلعت حرب عنه.

ومما سبق يتضح ان اسم طلعت حرب اقترن فى التاريخ بأكبر آثاره وهو بنك مصر الذى انشىء تعبيرا عن فكرة وطنية ودون اعتماد على حكومة او حزب ، بل كان أول بنك مصرى يقوم على اكتتاب الشعب نفسه بلا معونة أو اشراف من الحكومة .

وعلى الرغم من حملات النقد والتشكيك فى مقدره هذا البنك على مواجهه الواقع فقد بقى صامدا وسركدا مقدره الانسان المصرى على تحدى الصعاب ، يقود طليعة حركة الاعمار والتشييد فى العديد من المجالات وظل طلعت حرب يواجه التحديات حتى توفاه الله فى الثانى عشر من اغسطس ١٩٤١.

وهكذا كان بنك مصر وشركاته منشأة قومية بكل ما تعنية هذه الكلمة ، فكان دعامة للتحرر الاقتصادى ولبنة من لبنات بناء مصر الحديث.

محمد شفيق غربال ـ سيرة وتحية

(١٨٩٤-١٩٦١)

* د. عبد المنعم الجميعي

كان عالما فذا رزقه الله من حب العلم، والانصراف إلى البحث والتحصيل ، وعشق المعرفة، وتقدير جهود العلماء، وسعة الأفق وسماحة الخلق ما جعله بين أفراد جيله ملء السمع والبصر والفؤاد. وكان من القلائل الذين أسسوا لأنفسهم مدرسة خاصة في البحث العلمي تحمل طابعه وتسير على منهاجه. وكان المعلم الأول الذي لقن شباب الجيل الماضي دروسهم الأولى في التاريخ القومي والوطني فكان اهتمامه بتاريخ مصر الحديث الباب الرئيسى الذي نفذ منه إلى تاريخ العرب.

لقد كانت له فلسفة في التاريخ، وكان محبا للحقيقة، حرا في تصويرها وكان رفيقا في نقده، مرحبا به إذا وجه إليه، وكان متواضعا، سخيا بعلمه يجود به على من يقصده.

قال عنه أستاذه "أرنولد توينبي" "إن الطلاب الموهوبين لا يتعلمون من أساتذهم، فهو لا يتذكر أنه علَّم شفيق غربال شيئا، بل انه يتذكر أنه تعلم من غربال شيئا كثيرا ذلك أنه في الدراسات العليا يشترك كل من الأستاذ والطالب في تعليم كل منهما الآخر".

ولد محمد شفيق غربال في حي غربال الممتد على ضفاف ترعة المحمودية في الإسكندرية في عام ١٨٩٤، ونشأ وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في مدارسها، ثم أختار الالتحاق بمدرسة المعلمين الخديوية العليا بالقاهرة حيث وجد فيها-كما يذكر- المعهد الذي يصله بالدراسات الإنسانية، وتخرج فيها عام١٩١٥ ثم أوفدته الحكومة المصرية في بعثة دراسية لدراسة التاريخ الحديث بجامعة"ليفربول"بإنجلترا إبان الحرب العالمية الأولى.

ومع فداحة الأخطار التي كان يتعرض لها العالم في خلال هذه الفترة، وعلى الرغم من مصاعب السفر خلال تلك الأونة، فإن غربال لم يتردد في الذهاب إلى إنجلترا ليواصل دراسته للتاريخ هناك. وقد استطاع أن يثبت مقدرته فحصل على درجة البكالوريوس بمرتبة الشرف في عام ١٩١٩، وعاد إلى مصر ليعمل مدرسا بإحدى المدارس الثانوية بالإسكندرية لمدة ثلاث سنوات أوفد بعدها مرة أخرى إلى إنجلترا للحصول على درجة الماجستير بجامعة لندن ثم بمعهد البحوث التاريخية التابع لهذه الجامعة. وخلال ذلك التقى بالمؤرخ الإنجليزي الشهير "ارنولد توينبي" الذي كان يشرف على بحوث الدراسات العليا هناك ويذكر "توينبي"أنه منذ لقائه الأول به وجد فيه طالبا موهوبا وانه تنبأ بأنه سيكون في

---

* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب جامعة الفيوم

مستقبل حياته باحثا متميزا، كما تنبأ له بمسلكه الأخلاقي الذي تميز به، وبكونه موضوعي التفكير، مستقلا في الرأي ذا حزم وعزم فيما يتصل بالعمل الذي يتناوله[2].

ومن المعروف أن "توينبي"أشرف على رسالة غربال للماجستير التي حصل عليها في عام١٩٢٤ وكانت بعنوان:

The beginning of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali

وبعد أن عاد غربال إلى مصر في عام١٩٢٥ عين مدرسا للتاريخ الحديث بمدرسة المعلمين العليا، وهناك بدأ في تدريس تاريخ الحضارة الإسلامية والكتابة في هذا المجال فكتب فصلا بالإنجليزية عنوانه "الآراء والحركات في التاريخ الإسلامي"

Ideas Movements in Islamic History

ثم نقل غربال أستاذا [illegible] التاريخ الحديث بكلية الآداب بالجامعة المصرية في عام١٩٢٩ ثم ما لبث أن رقي بها أستاذا للتاريخ الحديث عام [illegible] فكان بذلك أول مصري يتولى هذا المنصب بالجامعة خلفا للمؤرخ الإنجليزي "جرانت". ومن هنا بدأ غربال يشق طريقا [illegible] في [illegible] الدراسات التاريخية المصرية، وفي نقل الإشراف على هذه الدراسات من يد القصر الملكي والمؤرخين الأجانب إلى يد الجامعة فبدأ في تكوين المدرسة التاريخية المصرية، [illegible] الدراسات الخاصة بالتاريخ المصري [illegible] وخاصة بعد إنشاء الدراسات العليا للماجستير والدكتوراه بالجامعة، وإشرافه وتوجيهه للبحوث التاريخية.

وقد تمكن غربال بفضل مقدرته العلمية، [illegible]قة ملاحظته، وقوة تأثيره على طلابه، أن تكون له الريادة الفكرية للمدرسة التاريخية فأقبل عليه تلاميذه بشغف، وأخذ يمنحهم من علمه وفكره ما ينير لهم السبيل دون أن يضن على أحد منهم بما يعلمه أو يصُد عن بابه طالب علم. فدفع ذلك تلاميذه إلى السعي للحاق به والسمو إلى قرب قمته عن طريق الحرص على الإجادة وتوخي الدقة[٣].

ولم تقتصر جهود غربال في الجامعة على الناحية العلمية بل تعدتها إلى نواحي النشاط الاجتماعي حين صار وكيلا للاتحاد العام لطلاب الجامعة المصرية[٤] وبذلك كان لغربال فضل عظيم في توجيه أجيال متعاقبة من تلاميذه الذين أخلصوا له الإجلال والتقدير، وامتد فضله عن طريقهم إلى العديد من أبناء هذه الأمة[٥].

---

[٢] ـ من كلمة الأستاذ ارنولد توينبي في مجمع اللغة العربية بالقاهرة أثناء تأبين غربال.

[٣] ـ المجلة التاريخية المصرية: المجلد التاسع عشر١٩٧٢ مقال للدكتور أحمد عزت عبد الكريم تحت عنوان محمد شفيق غربال أستاذ جيل وصاحب مدرسة ص ٢٦.

[٤] ـ منكرة مقدمة من كلية الآداب جامعة القاهرة بترشيح الأستاذ غربال لجائزة الدولة التقديرية عام١٩٦٠

[٥] ـ من كلمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد في مجمع اللغة العربية خلال حفل تأبين الأستاذ غربال.

أما عن الرسائل العلمية التي أشرف عليها غربال فهي متعددة، وقد ارتبط معظمها بالعصر العثماني وعصر محمد علي. ويرجع ذلك إلى أنه بسب إهمال لمؤرخين دراسة هذه الفترة في ذلك الوقت دعا غربال طلابه إلى الاهتمام بدراسة التاريخ العثماني باعتباره مدخلا لدراسة التاريخ المصري الحديث، ووجههم كذلك إلى الاهتمام بدراسة تاريخ القرن التاسع عشر بصفة عامة وعصر محمد علي بصفة خاصة نظرا لأن نبض الحياة المصرية

قد اشتد في ذلك العصر، وكانت التطورات السريعة والمتلاحقة التي وقعت بمصر خلاله قد أحدثت فيها ما يشبه الثورة في كافة مناحي الحياة. نتيجة لذلك خرج على يد غربال العديد من الدراسات الأكاديمية في هذه الموضوعات نذكر منها الدراستين اللتين قدمهما محمد رفعت رمضان ونال بهما درجتي الماجستير والدكتوراه وهما"ثورة علي بك الكبير" و"مصر والدولة العثمانية دراسة تاريخية للعلاقات السياسية بين الطرفين من ١٨٥٠-١٨٦٣" والدراسة التي قدمها حسن عثمان للماجستير تحت عنوان "فخر الدين بن معن الثاني أمير لبنان" والدراستين اللتين أعدهما أحمد الحته للماجستير والدكتوراه "الفلاح المصري في عهد محمد علي" و"تطور الزراعة المصرية في النصف الأول من القرن التاسع عشر" والدراستين اللتين قدمهما أحمد عزت عبد الكريم ونال بهما الماجستير والدكتوراه وهما "تاريخ التعليم في عصر محمد علي" و"تاريخ التعليم منذ أواخر عصر محمد علي إلى أوائل حكم توفيق" والدراسة التي أعدها أبو الفتوح رضوان للماجستير وعنوانها "تاريخ مطبعة بولاق" والدراسة التي قدمها محمد محمد توفيق للماجستير تحت عنوان "مصطلح وثائق تاريخ الحكم العثماني في مصر" والدراسة التي أعدها فائق جبره للماجستير تحت عنوان "ضرائب الأطيان المصرية في عهد محمد علي" والدراسة التي قدمها أمين عفيفي للدكتوراه بعنوان "تجارة مصر في عهد محمد علي" والدراسة التي قدمها عياد دوس للماجستير بعنوان "الفتح المصري للسودان في عهد محمد علي" والدراسة التي قدمها عبد العزيز الشناوي للماجستير تحت عنوان "السخرة في حفر قناة السويس".

ولغربال مؤلفات ليس بالكثيرة ولا بالضخمة، ولكن ما كتبه يقترن دائما باسمه خصوصا وانه كان يرى من الحقائق ما لا يراه غيره، إذ كتب تاريخا صاغه في لفظ أنيق فيه فطانة، وبُعد نظر، وحسن إدراك مع دعابة لطيفة تجعل من يقرأ له يحس أنه ليس مع مؤرخ أو فيلسوف و إنما مع فقيه من فقهاء التاريخ[٦].

ومن أبرز مؤلفات غربال رسالته للماجستير "بداية المسألة المصرية وظهور محمد علي"[٧] والتي تعد حدثا علميا إسترعى أنظار الأساتذة والباحثين، خاصة لأنها اتسمت باستقراء الأحداث، والفحص العلمي، والمقارنات، والناحية التحليلية، وكثرة المصادر والأسانيد كما اتسمت بالحياد في تقويم الأشخاص والبعد عن التحامل والعواطف.

وقد استطاع غربال في هذه الدراسة تناول التطورات السياسية في مصر منذ الحملة الفرنسية حتى وصول محمد علي إلى الباشوية، واثبت أن المسألة المصرية كانت جزءا هاما من المسألة الشرقية، وأنه لا يمكن فهم هذه

---

٦ - حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، دراسة في علم التاريخ ص ٢٠٤.

٧ - كتبت هذه الدراسة بالإنجليزية ولم تترجم بعد.

المسألة إلا إذا ربطنا بينها وبين ما كان يجري في الدولة العثمانية وأوربا، وهي الطريقة التي سار عليها أستاذه توينبي في مؤلفاته، وهي أنه لا يمكن للباحث أن يدرك كنه حقيقة تاريخ أمه من الأمم إذا هو قصر بحثه على تاريخ هذه الأمة، واكتفى بتتبع الحوادث التي وقعت فيها وحدها خصوصا وأن حوادث العالم متشابكة فلا تقع حادثة في بلد من البلدان إلا امتدت آثارها إلى البلدان الأخري بدرجات متفاوته قد تكون قوية أحيانا، وغير مؤثرة في أحيان أخرى.

وتظل هذه الفترة بالذات محور اهتمام غربال ففي عام ١٩٣٢ كتب بحثا بعنوان "الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنه١٨٠١" اهتم فيه بدراسة شخصيتين هما المعلم يعقوب حنا أو الجنرال المصري يعقوب والفارس الإيطالي لاسكاريس.

والمعروف أن الجنرال يعقوب دخل في خدمة الفرنسيين، وقد أشار إليه الجبرتي أكثر من مرة في كتابيه "مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس" و"عجائب الآثار في التراجم والأخبار" ذاكرا مساعدته لقادة الحملة، وقيامه بتأليف فرقه من الأقباط وإنشاء قلعة لها في الأزبكية.

أما الفارس لاسكاريس فهو نبيل إيطالي، دخل في سلك فرسان القديس يوحنا الذين يتخذون من مالطة مقر لهم، وحضر مع بونابرت إلى مصر، وتقلد بعض المناصب الإدارية، وكان يرى أن مصر جديرة بالاستقلال عن الدولة العثمانية بحكم موقعها وتاريخها ومواردها.

وبعد خروج الحملة الفرنسية من مصر تبعها الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس للسعي لدى الحكومات الأوربية لتحقيق استقلال مصر، ولكن يعقوب وافته المنية في الطريق، وكان نصيب مسعاه الإهمال.

ولا جدال في أن الأستاذ غربال قد نجح في تمحيص كل ما كتب في هذا الموضوع، وبذل جهدا في ترجمة الوثائق التي كتبها لاسكاريس وبذلك قدم بما كتبه خدمة للتاريخ المصري، وألقى شعاعا على أول رؤية حقيقية لاستقلال مصر عن الدولة العثمانية.

وفي الثلاثينات من هذا القرن نشر غربال دراسة تحت عنوان "مصر عند مفرق الطرق ـ رسالة حسين أفندي الروزنامجي" وتشتمل هذه الدراسة على تحقيق مخطوط بعنوان "ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية كما شرحه حسين أفندي أحد أفندية الروزنامه في مصر العثمانية" وهو عبارة عن أسئلة موجهة إلى "المسيو ستيف" مدير مالية مصر - خلال الحملة الفرنسية - إلى حسين أفندي حول أحوال الفلاحة في مصر ونظام الالتزام والضرائب، وبعض النواحي المالية، وإجابات حسين أفندي عليها[٨].

وقد مهدت دراسة هذا المخطوط الطريق لكل من تصدى لتاريخ الدولة العثمانية بالدراسة، وأكدت أن شفيق غربال كان محققا من الطراز الأول خاصة وأنه أضاف إلى المخطوط من الشروح والتعليقات ما أوضح فهم غربال الصادق لحقائق التاريخ المصري، وإيمانه بدور مصر الحضاري.

---

٨ ـ مجلة كلية الآداب: المجلد الرابع جـ١ مايو ١٩٣٦ ص ١ـ٧١

ويستمر غربال في دراسته عن هذه الفترة فيخرج كتابا بعنوان "محمد علي الكبير"[٩]، وفيه وصف المناخ الذي كانت تعيشه مصر قبيل عصر محمد علي، ونجاح محمد علي في إقامة سلطة مركزية تجمع كل القوى المتصارعة في إطار واحد، وقيامه بحركات إصلاحية وعمرانية واسعة في شتى المناحي حتى عادت مصر كما كانت مهدا للحضارة، كما وصف الصفوة المثقفة التي أرسلها محمد علي إلى أوربا لدراسة العلوم الحديثة، وعادت إلى مصر لتطبيق العلم على العمل بأنها ساعدت في النهوض بالزراعة والصناعة وبناء الجيش والأسطول، وأخذت عبقريتها تدب في جسم مصر وروحها كما تدب الخميرة في العجين، وأوضح أن ما قام به محمد علي من إصلاحات فاق ما كان يقوم به الفرنسيون لو أمتد حكمهم في مصر، ثم أرجع نجاح محمد علي في إصلاحاته، وفشل السلطان العثماني محمود الثاني في الإصلاحات التي قام بها في تركيا إلى أن محمد علي كان يعتمد على ثلاثة أسس وهي القوة والعلم والمال في حين اعتمد السلطان العثماني على القوة العسكرية وحدها.

أما عن مساوئ السخرة والاحتكار وقصر المناصب العليا على الأرستقراطية العثمانية وغيرها فقد بررها غربال بأنه كان لابد من التضحية بجيل أو جيلين في سبيل بناء حكومة قوية ومعمرة في مصر.

أما عن مواقف محمد علي من السلطنة العثمانية وأوربا فقد تمكن غربال بفضل اتساع ثقافته، وتمكنه من أساليب الكتابة التاريخية إلى ربط تاريخ محمد علي بالأوضاع العامة في الدولة العثمانية وأوربا، وطبيعة المؤامرات الدولية التي أحاطت به، كما رأى أن محمد علي وهو قائد عثماني مسلم كان لابد له من مساعدة الخليفة العثماني على إصلاح دار الإسلام وعلى الإحتفاظ بها مصونه ضد غزوات اعداء الإسلام وأنه ظل على إيمانه بهذا الموقف حتى فقد الثقة بالسلطان بعد صلح كوتاهيه في عام ١٨٣٣، وبدأ يفكر في الانفصال عن الدولة العثمانية، وإعلان استقلال ما يسمى "عربستان" أي البلاد العربية عنها، ولكنه كان يتردد في اتخاذ هذه الخطوة خشية ما يترتب عليها من المحاذير.

وعند تحليلنا لما كتبه غربال عن محمد علي نجد أنه تأثر تأثيرا واضحا بأستاذه "توينبي" في إيمانه بدور الصفوة المبدعة في مجالات النشاط البشري، وبنظريته عن فكرة التحدي والاستجابة Challenge and Response حين تطرق إلى معالجة العلاقات بين الشرق والغرب. يضاف إلى ذلك أنه دافع عن كل أعمال محمد علي وإنجازاته على حين أن هناك العديد من المآخذ على محمد علي وبعض أعماله التي كان يجب عليه توضيحها لا تبريرها. والى جانب ذلك نجد للأستاذ غربال دراسة قيمة تحت عنوان "تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ـ بحث في العلاقات المصرية البريطانية من الاحتلال إلى عقد معاهدة التحالف ١٨٨٢-١٩٣٦[١٠]" وهو كما يرى صاحبه في مقدمته "محاولة لتركيب صورة واضحة من الحوادث، والوقائع، والسياسات، والخطط، والبواعث والأغراض والأماني والأحلام والشهوات التي توالت على مصر، والتي يتكون منها تاريخ العلاقات بين مصر وإنجلترا".

---

٩ ـ نشر ضمن سلسلة أعلام الإسلام في عام ١٩٤٤ وأعادت دار الهلال نشره في أكتوبر ١٩٨٦.

١٠ ـ نشرته مكتبه النهضة المصرية في مايو ١٩٥٢ وقبيل ثورة يوليو بشهرين.

ويلاحظ على هذا الكتاب بصفة عامة أنه بحث علمي مدعم بالوثائق والتحليلات العلمية البعيدة عن التحيز والمعروضة بأسلوب مشوق جذاب.

وفي فصول هذا الكتاب تعرض غربال للمفاوضات المصرية البريطانية بصفة عامة، وبين كيفية نشأتها، وكيف رضي بها الإنجليز والمصريون بوصفها وسيلة لتحقيق الأماني، وصيانة المصالح. وتعرض للأحداث التي سايرت المفاوضات، وقدم وصفا موجزا للسياسة العامة للاحتلال تجاه المصريين ثم تطرق إلى العلاقات المصرية البريطانية إبان الحرب العالمية الأولى بصورة مبدعة، ووصف المبررات التي استندت إليها إنجلترا كي تفرض حمايتها على مصر، وموقف الزعماء المصريين من ذلك. كما تعرض المؤلف للتحفظات الأربعة التي صحبت انتهاء الحماية في فبراير ١٩٢٢، وتوقف عند عقد معاهدة ١٩٣٦.

ومع أن كتاب الأستاذ غربال يعتبر أثرا فريدا من نوعه من حيث الموضوع وطريقه عرضه، وتدعيمه بالوثائق، وكثرة التحليلات المدعمة بوجهات النظر المختلفة التي تؤكد فهم غربال الصادق لحقائق التاريخ المصري فانه مما يؤخذ على هذا الكتاب أن صاحبه لم يتعرض كثيرا للظروف الدولية العامة ذات التأثير المباشر في العلاقات المصرية البريطانية وربما يكون قد أجّل كتابة ذلك للجزء الثاني من الكتاب الذي كان يعتزم إصداره،ولكنه لم ير النور فقد توفي دون أن ينتهي من كتابته.

وعلى كل حال فان لهذه الدراسة مغزى مهما وهى أنها كانت المحاولة الأولى من جانب غربال للكتابة في القضايا المعاصرة، والتعرض للحركة الوطنية المصرية بعد أن كان القرن التاسع عشر وحده يحتل مكان الصدارة من اهتماماته.

وبعد أن قامت ثورة ١٩٥٢ ألقى غربال عشرة أحاديث باللغة الإنجليزية في البرنامج الأوربي بالإذاعة المصرية في عام ١٩٥٤[١١] عن تكوين مصر وفيها تحدث عن محبوبته ذات الأحرف الثلاثة وهي مصر فأوضح أن "مصر هبة المصريين" لا هبة النيل كما قال هيردوت لأن النيل الذي تقع مصر على ضفتيه قد قطع آلاف الأميال قبل أن يصل إلى مصر ومع ذلك فلا توجد غير مصر واحدة على طول مجراه، أقامها المصريون بكدهم وعرقهم، فهم الذين فلحوا الأرض وسقوها وزرعوها، وهم الذين أقاموا السدود والعمران في شتى أرجائها، ولولا جهودهم هذه لتحولت مياه النيل إلى مستنقعات وأماكن خربة تنتشر منها الملاريا والأوبئة ومن هنا فان البشر هم الذين صنعوا مصر، وهؤلاء البشر الذين فعلوا ذلك هم المصريون. كما أثبت غربال في أحاديثه أيضا أن مصر مهد الحضارة التي تجمعت حولها كل الأحداث، وأن موجات الغزاة التي وفدت إليها لم تستطع أن تفتّ في عضدها أو تؤثر في شخصيتها.

---

١١ - أذيعت هذه الأحاديث بعد ذلك من محطات إنجليزية وأمريكية متعددة.

ونظرا لأهمية هذه الأحاديث فقد جمعت في كتاب صدر في القاهرة باللغة الإنجليزية في عام١٩٥٥ ثم ترجم إلى العربية، ونشرته وزارة الثقافة المصرية في عام١٩٥٧، كما ترجمته "كارمن برافو" الباحثة بقسم الدراسات السياسية بكلية الآداب جامعة مدريد إلى الأسبانية [١٢].

أما عن آخر ما كتبه غربال فكان بعنوان "منهاج مفصل لدراسة العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ما هي عليه اليوم"، وقد بين فيه العوامل التاريخية التي أثرت في بناء الأمة العربية وحددها فيما يلي:

١. الأثر العثماني في الأمة العربية
٢. الغزو الأوربي وأثره في الأمة العربية
٣. التطور الداخلي للأمة العربية

وشرح كذلك ظروف وقوع العالم العربي تحت الحكم العثماني والظروف التي أدت الى الغزو الأوربي للأقطار العربية. والنتيجة التي خرج بها غربال من دراسته لهذا الموضوع تتلخص في أن عوامل التدافع والتصادم بين الأمة العربية والقوى الغازية لها انجلت عن ظهور النهضة العربية الحديثة، والى جانب ذلك فان لغربال جهودا كبيرة في مجال الترجمة من الإنجليزية إلى العربية وبخاصة في مجال التوجيه والمراجعة والإشراف على نقل عدد من أمهات الكتب التاريخية اللازمة لتثقيف الجيل العربي، وإفادة الدارسين والباحثين. كما أن له العديد من البحوث والمقالات التاريخية المنشورة في المجلات العلمية [١٣]، وفي الترجمة العربية لدائرة المعارف الإسلامية[١٤]، وفي تقديمه لكتب تلاميذه وأصدقائه وفضلا على ذلك فله عدد كبير من الأحاديث الإذاعية في موضوعات تاريخية متنوعة منه موضوعات في التاريخ الإسلامي، وسلسلة أخرى عنوانها "العالم الإسلامي من المحيط إلى الخليج" لو جمعت في صورة مدونات لكانت تراثا ضخما من المؤلفات.

وبعد أن تعرضنا لمؤلفات غربال يتضح لنا مدى قدرته، وتمكنه من أصول فن التاريخ، وإدراكه لحقائق تاريخ بلده، يضاف إلى ذلك أن كتاباته كانت تتحلى بالعمق ويتجلى فيها الموضوعية، وعدم إلقاء الأحكام جزافا، وانه وان كان قد تأثر بمدرسة"توينبي" كثيرا فانه لم يخضع في كثير من الأحيان لفلسفة تاريخية معينة بل كان يأخذ من كل تفسير بقدر طبيعة الدراسة التي يتعرض لها والملابسات التي تحيط بها. وحينما يتعرض لإحدى القضايا الشائكة التي تتعدد الآراء فيها كان في معظم الأحيان لا يفرض على القارئ رأيا بعينه بل كان يستشهد بآراء من تعرض لهذا الموضوع ليبحث القارئ معه عما هو أقرب من الموضوعية، وأحيانا كان يبدي رأيه في همس هادئ أبعد ما يكون عن التكلف، وأقرب إلى اللمسات الفكهة الإنسانية المهذبة. وعلى كل حال لم تكن مؤلفات غربال ومصنفاته العلمية وحدها كل ما

---

[١٢] - صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد: مدريد، المجلد الرابع عشر ١٩٦٧، ص٧-٤٧.

[١٣] - انظر على سبيل المثال مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية، المجلد الثاني، العدد الأول، مايو ، تحت عنوان أمير سوري في إيطاليا ص٧٦-١١١.

[١٤] - انظر مادة (الترك) في الترجمة العربية لدائرة المعارف الإسلامية.

قدمه بل لعل أهمها تلاميذه الذين تشربوا ثمرات فكره، ونبضات عقله فقد سأله يوما أحد الأجانب عن آخر مؤلفاته، وكان في مجلس العلم من تلاميذه فأشار إليهم قائلا: هؤلاء هم كتبي.

هذا عن غربال وجهوده المتعددة في المجالات التاريخية. أما عن أنشطته العلمية الأخرى والمناصب المتعددة التي تولاها فقد انتخب شفيق غربال وكيلا لكلية الآداب فعميدا لها في مايو ١٩٣٩ وحتى مارس ١٩٤٠.

وفي عام ١٩٤٠ نقل غربال من الجامعة إلى وزارة المعارف ليبدأ مرحلة جديدة في خدمة التربية والتعليم، وهى خدمة وطنية جليلة، وظل هناك حتى ديسمبر ١٩٤٢ يعمل وكيلا مساعدا بالوزارة، ثم عاد إلى منصبه بالجامعة لإدارة دفة المدرسة التاريخية.

وفي يناير ١٩٤٥ نقل غربال إلى وزارة المعارف مستشارا فنيا فوكيلا لها إلى جانب تعيينه أستاذا غير متفرغ بكلية الآداب في فبراير ١٩٤٩ وأتاح له ذلك الالتقاء بطلابه والاستمرار في مدرسته التاريخية ثم نقل وكيلا لوزارة الشئون الاجتماعية لفترة أعيد بعدها إلى وزارة التربية والتعليم حيث نهض بنصيب كبير في أعمال لجان المناهج بالوزارة[١٥].

وخلال عمل غربال بوزارة التربية كان له دور بارز في حركة تمصير المقررات التاريخية بالمدارس، كما كانت الكتب الدراسية التي أسهم في وضعها بمثابة النواة التي اهتدى بضوئها الطلاب والكتّاب من بعده.

وإلى جانب ذلك لمس غربال عن قرب مشكلات المجتمع المصري والحياة المصرية بوجه عام. وقد قدم غربال للدراسات التاريخية في مصر خدمات جليلة تمثلت في إنشاء "الجمعية المصرية للدراسات التاريخية" التي كانت تعتبر وبحق ربيبته القريبة من قلبه. فقد سعى سعيا ملموسا من أجل إنشائها حتى صدر المرسوم الملكي في عام ١٩٤٥ بإنشاء الجمعية، وصدر بعده أمر ملكي بتعينه نائبا لرئيس الجمعية، واستمر الحال على ذلك حتى انتخب لمنصب الرئيس في عام ١٩٥٦ وخلال ذلك أشرف شفيق غربال على إنشاء مكتبة الجمعية التي تدين له بالكثير من الفضل، وكانت سياسته في هذه المرحلة ترمي إلى اقتناء كل كتاب طيب يمكن اقتناؤه، ثم عمل بعد ذلك على أن يكون لكل موضوع مراجعه الأساسية فقام بتزويد المكتبة بمجموعات قيمة من الكتب والمراجع التي تعالج الكثير من القضايا التاريخية الهامة هذا إلى جانب رئاسته لتحرير مجلة الجمعية السنوية، وإخراجه لمجموعة قيمة من مطبوعاتها. يضاف إلى ذلك أن شفيق غربال كان سباقا إلى المساهمة في أنشطة الجمعية الثقافية فشارك فيها بمحاضراته التي كانت تتعدد أحيانا في الموسم الثقافي الواحد[١٦].

---

[١٥] - ظل غربال بوزارة التربية إلى أن أحيل إلى التقاعد في عام ١٩٥٤ بعد أن بلغ الستين.

[١٦] - لتفاصيل ذلك انظر كتابنا الجمعية المصرية للدراسات التاريخية دراسة تاريخية لمؤسسة علمية، ص ١٤٧-١٥٢.

وإلى جانب ذلك عمل شفيق غربال على بناء مكانة مرموقة للجمعية بين مثيلاتها في العالم، وذلك عن طريق اتصالاته العديدة بالمؤرخين الأجانب وحضور بعض مؤتمراتهم، ودعوة بعضهم لإلقاء محاضرات بالجمعية علاوة على تشجيعه على نشر بعض البحوث بلغات أجنبية في مجلد خاص ومن مآثر غربال أيضا إشرافه على إنشاء متحف الحضارة المصرية في عام١٩٤٩ فقام بتوجيه لجانه المختلفة بآرائه وتحقيقاته كذلك مثَّل غربال الحكومة المصرية في عدة مؤتمرات تاريخية فقد ترأس وفد مصر إلى الجمعية العمومية لليونسكو في عام١٩٤٨ وانتخب عضوا بالمجلس التنفيذي لهذه الهيئة عدة سنوات فظل يمثل الشرق الأوسط لدى هذه المنظمة من عام١٩٤٦ إلى عام١٩٥١. يضاف إلى ذلك أن هيئة اليونسكو اختارته في عام١٩٥١ لعضوية لجنة من أثنى عشر مؤرخا من أبرز مؤرخي العالم ليكونوا مستشارين لها في شئون العالم وهو مشروع المؤلف الضخم الذي تكفلت به اليونسكو[١٧].

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان غربال عضوا بمجمع اللغة العربية في الفترة بين عام١٩٥٦ وسنه وفاته، كما كان عضوا بالمجمع العلمي المصري والجمعية الجغرافية، والمجلس الأعلى للآثار، ومركز تسجيل الآثار المصرية القديمة، وجمعية الآثار القبطية، ولجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ورئيس الشعبة التاريخية للجنة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية.

هذا إلى جانب أنه رأس مجلس مديري الموسوعة العربية الميسرة فيما بين عامي١٩٥٩-١٩٦١[١٨].

وعلى الرغم من مشاغل غربال في وظائفه التي استنفدت الكثير من وقته ظلت صلته بالدراسات التاريخية مستمرة، واستمرت مدرسته التاريخية القائمة على حب البحث والتزام المنهج العلمي قائمة.

وبعد تقاعده تولى منصب مدير معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة التابع لجامعة الدول العربية خلفا للأستاذ ساطع الحصري فبعث فيه الحركة والنشاط، ووثق علاقته بالهيئات العلمية والجامعية التي لم تعرف قبل غربال أن هناك معهدا بهذا الاسم، كما نهض المعهد في عهده نهضة علمية كبيرة.

يضاف إلى ذلك أن غربال عمل على توجيه طلابه بالمعهد توجيها علميا فأخذ يشرف على عدد كبير من الرسائل التاريخية في المعهد تتناول تاريخ الأمة العربية الحديث والمعاصر حتى خرجت على يديه موضوعات عن العرب والترك (١٩٠٨-١٩١٦) و"تاريخ الوحدة العربية حتى عام١٩٤٥" و"المسألة المراكشية١٩٠٢-١٩١٢" و"اليمن في عهد الإمام يحيى ١٩١١-١٩٤٨" وغيرها.

وظل غربال يشغل منصبه في هذا المعهد بجدارة وهمة حتى وفاته في ١٩اكتوبر ١٩٦١ بعد مرض قصير لم يمهله إلا أياما فذهب إلى جوار ربه فبكاه أصدقاؤه وتلاميذه ومقدروا علمه وعارفوا فضله[١٩].

---

١٧ - المجلة التاريخية المصرية: المجلد الحادي عشر ١٩٦٣.

١٨ - مذكرة الجمعية التاريخية بشأن ترشيح الأستاذ غربال لجائزة الدولة التقديرية١٩٦٠.

١٩ - Abdel Rahman Zaki: Mohammed Shafik Ghorbal 1894-1961,Cairo 1962

ومما سبق يتضح أن شفيق غربال كان مؤرخا وعالما من الطراز الأول يستقرئ الحضارات كما يستقرئ الوثائق والنصوص وانه مصري أصيل عمل في تواضع ورحابة أفق على النهوض بالدراسات التاريخية فأرسى قواعدها، ووجهها التوجيه العلمي السليم، كما يتضح أن جهوده لم تقتصر على إنعاش الدراسات التاريخية في مصر بل تعداها إلى المشاركة في الحركة الفكرية بكل جوانبها وأبعادها ومما يحمد له أنه لم يتملق السراي الملكية رغم إعجابه بشخصية محمد علي، فكان بحق المثل الأعلى للأستاذ الجامعي الذي يحق لمصر أن تفخر به. وحسنا فعلت جامعتا القاهرة وعين شمس عندما أطلقتا اسمه على مدرج في كليتي الآداب بهما.

أبرز رجالات الثورة العرابية

١ـ أحمد عرابى

(١٨٤١ـ ١٩١١م)

تنتمى أسرة أحمد عرابى إلى أصول عربية وفدت من العراق إلى مصر، فهو من ذرية الإمام على الرضا، ومنتهيا بنسبه إلى الامام الحسين رضى الله عنه وقد ولد أحمد عرابى فى قرية "هرية رزنة" بمديرية اللشرقية فى ٣١ مارس ١٨٤١ وتلقى تعليمه المبكر فى كتاب القرية ثم التحق بالأزهر وانخرط بعدها فى سلك العسكرية فى ديسمبر ١٨٤٥ بعد أن أمر سعيد باشا بانتظام ابناء العمد والمشايخ فى سلك الجندية. وقد ترقى عرابى فى مراتب الضباط سريعا فى عهد سعيد باشا حتى وصل الى رتبه القائمقام. وخلال تلك الفتره استطاع عرابى تكوين افكاره السياسية الأولى التى تنحصر فى ضرورة المساواة بين المصريين والشراكسه.

وبعد ان تولى اسماعيل باشا الحكم تعرض عرابى للعديد من المكائد والمظالم خاصة فى الضباط الشراكسة لدرجة أنه أحيل إلى وظيفة مدنية لفترة ولم تتم إعادته إلى صفوف الجهادية إلا خلال الاستعداد للحملة الحبشية فتم ارساله إلى الحبشة. وهناك شاهد الكوارث والهزائم التى تعرض لها الجيش المصرى نتيجة لعدم كفاية القادة الشراكسة. وازدادت الأزمات بعد تولية الخديو

توفيق الحكم فى ٢٦ يونيو ١٨٧٩ حتى جاوزت فى خطورتها وعواقبها ما حدث فى عهد ابيه مما دفع العسكريين والمدنيين إلى التفكير فى ضرورة أنقاذ البلاد. وخلال تلك الفترة كان الخديو توفيق قد قرب عرابى اليه، فمنحه رتبة الأميرالاى، وجعله ياورا خديويا له، كما عينه اميرا على الآلاى الرابع بالعباسية إلا أن نفس عرابى الثائره التى تعلقت بها آمال الضباط الوطنيين وقتذاك لم تقبل السكوت على تسلط عثمان رفقى ناظر الجهادية على أبناء مصر وتفضيله للأتراك الشراكسة عليهم، وبوجه خاص أنه منح الرتب والنياشين والوظائف الهامة للشراكسة فى الوقت الذى حرم منها المصريون. وطالب الضباط الوطنيون عرابى بالدفاع عن حقوقهم، واتفقوا على اختياره رئيسا لهم، فقام عرابى بكتابة عريضة إلى مصطفى باشا رياض رئيس مجلس النظار وضح فيها تعصب ناظر الجهادية الشركسى لبنى جنسه، واجحافه بحقوق الوطنيين وطالب فيها بعزله، وتعديل القوانين العسكرية بحيث تكون كافلة للمساواه والعدل بين الجميع.

وقد أصر عرابى على مطالبه بالرغم من تحذير رياض باشا لعرابى وصحبه من العواقب الخطيرة التى يمكن ان تترتب على تقديم هذه العريضة للخديو.

واعتبر الخديو تصرف عرابى تمردا، وأمر بالقبض عليه وعلى زملائه ومحاكمتهم أمام مجلس عسكرى. ونظرا لأن

القبض عليهم فى ثكناتهم قد يثير عليهم باقى الضباط، فقد تم استدراجهم إلى ديوان الجهادية. بحجة النظر فى خطة الاحتفال المزمع إقامته لزفاف الاميرة جميله هانم شقيقة الخديو. وفى الديوان انعقد المجلس العسكرى لمحاكمتهم، ولما تسرب الخبر للضباط الوطنيين اقتحموا قاعة المحاكمة، واطلقوا سراح الضباط المحتجزين بالقوة ثم انطلقوا إلى قصر عابدين مطالبين الخديو بعزل ناظر الجهادية، والنظر فى شكواهم. وأحس الخديو بخطورة الموقف، فرضخ للأمر الواقع وأمر بعزل عثمان رفقى، وبذلك نجح العرابيون فى فرض ارادتهم وتأكدت زعامة عرابى للجيش، وعمل عرابى على تحسين أحوال الضباط والجنود، فتقدم بمذكرة إلى ديوان الجهادية طالب فيها زيادة المرتبات، وإصلاح قانون الترقية، وتحسين نظام التغذية، وإرجاع بعض الضباط المفصولين إلى الخدمة. وقد وافق الخديو على هذه المذكرة وأمر بتشكيل لجنة للنظر فى إصلاح احوال العسكريين.

وخلال ذلك عمل عرابى على نشر افكاره بين طبقات الامه، وطالبهم بمساعدته على حفظ النظام والامن. ونظرا لتزايد الدسائس التى تحاك ضد العرابيين، ومحاولات رياض باشا رئيس النظار التخلص منهم اتخذ العرابيون موقف الحذر، كما طلب عرابى من أبناء الامة تفويضه فى الدفاع عن مصالحهم والمطالبة بحقوقهم حتى يمكنه الدعوة إلى تشكيل مجلس نيابى، واسقاط

وزارة رياض المستبدة وانهم إذا فوضوه فى ذلك فانه سيعمل كل ما يتعلق باحوال البلاد من الاصلاحات المطلوبة.

ولقى كلام عرابى آذانا صاغية من جميع المصريين فى شتى انحاء البلاد وتقدموا بعرائض التفويض له فى النيابة عنهم، وتضامنهم معه فى كل ما يقوم به من اصلاحات مما كان له اكبر الاثر فى تقوية العزائم واطلاق اسم المحضر الوطنى على هذه العرائض.

وساهم عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية بدور فعال فدعا الاهالى الى تأييد عرابى والالتفاف حوله حتى يتخلصوا من حياة الذل والاستعباد وألهب حماسهم بخطبه الوطنية.

وشعر عرابى بأن مركزه أصبح قويا بتفويض جماهير الشعب المصرى له، وتأييد زملائه الضباط فقرر القيام بمظاهرة وطنية يجتمع فيها أبناء الجيش والشعب معا، فكانت مظاهرة عابدين فى سبتمبر ١٨٨١م والتى وقف فيها عرابى أمام الخديو ممثلا للأمة المصرية كلها حيث قال له بعد أن سأله الخديو عن أسباب حضوره بالجيش إلى عابدين جئنا يا مولاى لنعرض عليك مطالب الأمة والجيش وكلها طلبات عادلة فقال الخديو "وما هى هذه الطلبات" فرد عرابى هى "إسقاط الوزارة المستبدة، وتشكيل مجلس نواب على النسق الاوربى، وزيادة عدد الجيش إلى القدر المعين فى الفرمانات السلطانية، والتصديق على القوانين

العسكرية السابق أمركم بوضعها"، "فقال الخديو" كل هذه الطلبات لاحق لكم فيها وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى واجدادى وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا" ولم يهتز عرابى من كلمات الخديوى ورد بكل قوةَ قائلا "لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا، فو الله الذى لا إله إل هو إننا لم نورث ولن نستعبد بعد اليوم" فتراجع الخديو إلى قصره بناء على نصيحة من معه وانتهى الأمر بقبول مطالب العرابيين فتم عزل رياض باشا وتولية محمد شريف باشا مكانه. أما بالنسبة لانشاء مجلس نواب، وزيادة عدد الجيش فقد رأى الخديوى ضرورة الرجوع إلى الباب العالى ووافق عرابى على ذلك.

وسار العرابيون من نصر إلى نصر وافتتح مجلس النواب، ونتيجة لحدوث خلاف بين النواب والنظار فى شأن الميزانية استقالت وزارة شريف، وكلف محمود سامى البارودى صديق العرابيين بتشكيل وزارة جديدة. وفى عهد وزارة البارودى تقلد عرابى وزارة الجهادية، وقام بتمصير الجيش، وإحالة عدد كبير من الضباط الشراكسه إلى الاستيداع، وأصدر العديد من القوانين فى صالح المصريين مما دفع الشراكسة إلى التآمر عليه وإنتهاء الامر بمحاكمتهم وصدور الأحكام بنفى أربعين منهم الى السودان.

ولم يرض الخديو على ذلك ورفض التصديق على هذه الأحكام مما اغضب العرابيين، وتأزمت الأمور بينهم وبينه. وانتهزت

انجلترا وفرنسا هذه الفرصة وأرسلت مذكرتهما المشتركة فى ٢٥مايو ١٨٨٢ تطلبان فيها اسقاط وزارة البارودى، وابعاد عرابى عن مصر وعلى الرغم من رفض الامة كلها للمذكرة فقد وافق عليها الخديو مما أدى إلى استقالة وزارة البارودى. وتحت ضغط العسكريين استمر عرابى على رأس وزارة الجهادية، وتعهد بالحفاظ على الأمن والنظام.

وبدأ الخديو وأنصاره التآمر لازاحة عرابى من مركز السلطة وذلك باحراجه باتهامه بعد القدرة على ضبط الأمن فى البلاد، ولتحقيق هذا الغرض تم تدبير مذبحة الأسكندرية فى ١١ يونيو ١٨٨٢.

وقد استغلت انجلترا حدوث المذبحة للتدخل عسكريا فى شئون مصر، وانتهزت فرصة قيام عرابى بتجديد بعض الطوابى وعمل الاصلاحات فى حصون الأسكندرية فقامت بضرب الاسكندرية بمدافع اسطولها فى يوليو ١٨٨٢ وعلى الرغم من صمود القوات المصرية فى مراكزها أمام قذائف الإسطول الإنجليزى فقد تم تخريب استحكامات المدينة، وهدم واحراق بعض مبانيها مما إضطر العرابيين إلى الإنسحاب من الأسكندرية إلى كفر الدوار، ورفضهم أوامر الخديوى بوقف الاستعدادات الحربية واعادة الحياة المدنية. ونتيجة لإتضاح موقف الخديو المؤيد للانجليز دعا عرابى إلى عقد جمعية عمومية من كافة طوائف الشعب ليعرض

عليهم الموقف، ويشاورهم فى أمر الحرب، فلبى الدعوة نحو من سبعين شخصا استقر رأيهم على لزوم الاستمرار فى اعداد التجهيزات الحربية، وعلى استدعاء النظار من الأسكندرية وضرورة حضور الخديو إلى القاهرة.

وفى أعقاب ذلك أصدر الخديو امرا بعزل عرابى. وردا على ذلك عقد عرابى مجلس عام فى ديوان الداخلية صدرت خلاله فتاوى من بعض المشايخ بمروق الخديوى لخيانته لدينه ووطنه وأمته وانحيازه للإنجليز.

وخلال ذلك لم يتمكن الانجليز من اقتحام استحكامات عرابى فى كفر الدوار لمناعتها واستبسال المصريين فاتجهت قواتهم لاحتلال منطقة القناة مما اضطر العرابيين إلى جعل منطقة التل الكبير مركزا عموميا لقواتهم العسكرية، وقد أخطأ عرابى فى اعتماده على دعوة ديلسبس بضمان حياد القناة ولم يستمع لنصائح ضباطه بردمها، مما أدى إلى تغيير مجرى الحرب واحتلال الإنجليز للقناة، وهزيمة عرابى فى التل الكبير واضطراره إلى تسليم نفسه للقوات الانجليزية فى سبتمبر ١٨٨٢ فتم تقديمه وزملائه للمحاكمة وانتهى الأمر بنفى عرابى إلى جزيرة سيلان وتجريده من رتبه واملاكه.

وعلى الرغم من مصاعب النفى والإبتعاد عن الوطن فان عرابى لم ينس لحظات رحيله عنها فكتب بيانا يوضح فيه علاج مشاكل مصر والاصلاحات اللازمة لانتظام أحوالها.

واستمر عرابى فى منفاه بسيلان حتى تولى الخديوى عباس الثانى اريكة الخديوية فى مصر، واصدر أوامره بالعفو عن عدد كبير ممن اشتركوا فى احداث الثورة العرابية فعاد عرابى إلى مصر ووصل إلى القاهرة فى سبتمبر ١٩٠١.

وعلى الرغم من ابتعاد عرابى عن وطنه تسعة عشر عاما فانه قوبل بعد عودته إليه بالهجوم من البعض فقد هاجمته جريدة اللواء واتهمه الزعيم مصطفى كامل بالضعف والجبن والتعمد فى إدخال الاحتلال إلى مصر ١٣ أكتوبر ١٩٠١ كما تعرض عرابى لنقد امير الشراء أحمد شوقى بقوله:..

صغار فى الذهاب وفى الاياب ... أهذا كل شأنك يا عرابى!!

ونظرا لتوتر أحوال عرابى الاقتصادية والضنك المالى الذى ألم به نتيجة لمصادرة أمواله فقد قدم العديد من الالتماسات إلى المسئولين يطلب فيها رد أمواله المصادرة ولكن مطالبه ذهبت ادراج الرياح حت توفاه الله فى ٢٢ سبتمبر ١٩١١م ودفن فى قرافة الامام الشافعى.

المصادر المخطوطة

- محافظ الثورة العرابية محفظة رقم (٨)
- احمد عرابى كشف الستار عن سر الأسرار (جزءان)
- Broadley: The Trial Exile and Pardon of Arabi Pacha. Vol II

المصادر والمراجع المطبوعة

- سليم النقاش: مصر للمصريين، جـ ٤
- عبد الرحمن الرافعى: الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى
- عبد المنعم الجميعى :
  - الثورة العرابية بحوث ودراسات وثائقية
  - عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية
- ميخائيل شاروبيم: الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث جـ ٤
- Broadley: How we Defended Arabi and his friends.
- Cromer: Modern Egypt

الدوريات

الأستاذ: نوفمبر ١٨٩٢ ـ اللواء اكتوبر ١٩٠١

الوقائع المصرية فبراير ١٨٨١

عبد العال حلمى أبو حشيش[*]

(- مارس ١٨٩١)

من زعماء العرابيين الذين كانت لهم أدوار مشهودة فى تاريخ الثورة وظـل رفيقـا لعرابى حتى نهايتها، وقد توفى فى مارس ١٨٩١.

دخل عبد العال حلمى الجيش فى عهد سعيد باشا، ورقى من تحت السلاح ولم ينـال حظا كبيرا من التعليم الحربى. وقد تدرج فى الرتب العسكرية فى عهد اسماعيل، وعندما تولى توفيق الحكم رقاه إلى رتبه القائمقام وجعله قائدا للآلاى السودانى المعسكر فى طره، وبعد أن شكل على الروبى جمعية سرية فى الجيش للوقوف فى وجه مظالم الشراكسة الـذين قـاموا بتنزيل رتب وفصل بعض الضباط المصريين، انضم عبد العال حلمـى إليهـا. وكـان مـن الاصدقاء المقربين إلى أحمد عرابى، وعندما تزايدت ضغوط عثمان رفقى وزيـر الحربيـة الشركسى على الضباط المصريين وقيامه بإصدار أوامره بنقل عبد العال حلمى مـن الآلاى السودانى إلى ديوان الجهادية ليكون معاونا فيه وتعيين أحد الضباط الجراكسة مكانه، لجأ عبد العال حلمى وعلى فهمى وبعض الضباط إلى أحمد عرابى وهم فى حالة هياج شديد وتباحثوا معه فى الأمر اقسموا على الدفاع عن حقوقهم وكرامتهم واتفقوا على كتابـة عريـضة إلـى مصطفى رياض باشا رئيس النظار يطالبون فيها بعزل ناظر الجهادية لتعصبه لبنـى جنـسه وإجحافه بحقوق الوطنيين كما طالبوا بان يكون ناظر الجهادية مصريا، ومع أن رياض باشـا حذرهم من عواقب هذه العريضة فقد صمم الضباط الثلاثة عليها، ولما عرض الأمـر علـى مجلس النظار أصدر الخديو أمرا باعتقال الضباط الثلاثة واحالتهم إلى مجلس عسكرى بتهمة التمرد والعصيان، فدعى عبد العال وزميليه إلى ديوان وزارة الجهادية بقصر النيل فـى أول فبراير ١٨٨١ بحجة الاستعداد لترتيب عملية الاحتفال بزفاف جميلة هـانم شـقيقة الخـديو، وأخفى عنهم أمر المحاكمة.

ولم يكد عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى يدخلون قصر النيل حتى أطاحت بهـم شرازم الشراكسة يسبونهم وينزعون سلاحهم وقدموا للمحاكمة ولما علم الضابط محمد عبيـد بذلك اقتحم مقر المحكمة وقام باطلاق سراحهم، وفى أعقاب ذلك ذهبوا مع جنودهم إلى قصر عابدين لإبلاغ الخديوى بما حدث وكرروا المناداة بمطالب الضباط وقد وافق الخـديو علـى

---

[*] إعداد: د. عبد المنعم ابراهيم الجميعى، استاذ التاريخ الحديث والمعاصر، بكلية الآداب جامعة الفيوم.

طلبهم ووافق على عزل عثمان رفقى وتعيين محمود سامى البارودى مكانه كما أعلن الخديو عدم وجود تمييز بين الضباط المصريين والشراكسة فى الجيش وزيادة مرتبات الضباط بهدف استرضائهم، ومع ذلك فقد ظل عبد العال متشددا فى مطالبه مندفعا لا يحتاط للعواقب فشكك فى نوايا الخديو تجاه الضباط الوطنيين وطالب بشغل الأماكن الخالية بآلايه بالعناصر الوطنية وقد صدق مجلس النظار على طلبه مما جعل الخديو يفكر فى التخلص منه.

ونتيجة لتأثر هيبة الخديو من هذا الحادث اتخذ أسلوب الدسائس للنيل من الضباط الوطنيين فاوعز إلى تابعيه باغراء جنود الآلاى السودانى على التمرد على ضباطهم، وتوجيه اتهامات ضد قائد الآلاى عبد العال حلمى، وتحريض الجنود على العصيان، وتحرير العرائض ضد العرابيين ولما انكشفت المؤامرة وحوكم مدبريها دبرت محاولة أخرى لنقل عبد العال حلمى ففى ٣ فبراير ١٨٨٢ ، اكتشفت محاولة لدس السم فى اللبن لعبد العال حلمى، وبرزت شائعات ان هذه المؤامرة دبرت بمعرفة حاشية الخديو واعترف الجانى بجريمته وحكم عليه بالسجن وكوفئ عبد العال بالباشوية فى الترقيات العسكرية التى اعقبت تأليف وزارة البارودى، واتخذ العرابيون هذه الحادثة سببا لتهديد الخديو والتلويح بخلعه.

ولما عظم شأن العرابيين وخشى الخديوى خطرهم حاول تشتيت شملهم بأبعادهم عن القاهرة وكان من نصيب الآلاى السودانى الذى يقوده عبد العال السفر إلى السودان، ولكن العرابيين توقفوا عن إطاعة الأمر واضطربت الأحوال ونتيجة لشدة الضغط من الحكومة وكثرة الدسائس زحف عرابى فى مظاهرة إلى ميدان عابدين، شارك فيها عبد العال حلمى المظاهرة وقاد الآلاى الثالث المشاه بعد أن رفض قائد الآلاى محمد شوقى الاشتراك فى المسيرة، وذهب إلى ميدان عابدين مما أفشل فكرة تردد البعض فى عدم المشاركة، وعمل على تجنب انقسام الجيش إلى معسكرين ونجحت المظاهرة فى عزل وزارة رياض والموافقة على تولية شريف باشا وتحقيق مطالب العرابيين.

وقد اشترط شريف باشا لتولى الوزارة على العرابيين نقل بعض الآلايات إلى خارج القاهرة، ومنها آلاى عبد العال حلمى وحسما لتجنب الخلاف وافق الضباط على رحيل عبد العال بجنوده إلى دمياط وان ينتقل عرابى بالآلاى الرابع مشاه إلى رأس الوادى، فغادر عبد العال حلمى القاهرة على رأس الآلاى السودانى إلى الحامية الجديدة بدمياط فى الرابع من أكتوبر ١٨٨١ وفاء لما أخذوا على أنفسهم بالابتعاد عن العاصمة. وقد جرى ذلك وسط مهرجان شعبى ومظاهرة سياسية فكان فى وداعه عرابى والبارودى وعبد الله النديم، وجمع كبير من الأهالى الذين أخذ بعضهم ينثر الرياحين والورود على رءوس العساكر وفى دمياط

انفرد عبد العال حلمى بالسلطة فى المدينة بعدما أصر على طرد المحافظ "اسماعيل زهدى" من هناك.

ولما انكشفت مؤامرة الشراكسة ضد العرابيين بهدف تصفية الضباط المصريين وعلى رأسهم عرابى وعبد العال حلمى، وشكلت محكمة عسكرية لمحاكمتهم شارك فيها عبد العال حلمى وبعد أن رفض الخديو التصديق على قرارات هذه المحكمة وتأزم الموقف أرسلت انجلترا وفرنسا مذكرتهما المشتركة للمطالبة بمغادرة عرابى للبلاد وإلزام عبد العال حلمى وعلى فهمى وطلبه عصمت بيوتهم ولكن هذه المطالب لم تنفذ بالرغم من قبول الخديو لها.

وبعد سقوط وزارة البارودى قام الخديو باستدعاء كبار الضباط ومنهم عبد العال حلمى وأبلغهم بسقوط الوزارة وإحالة نظارة الجهادية عليه، وأنه يجب تنفيذ أوامره من الآن فصاعدا دون غيره، فكان رد عبد العال حلمى وبعض الضباط عليه بأنه يجب رفض المذكرة الانجليزية الفرنسية المشتركة التى وافق عليها الخديو أولا حتى يستطيعون تنفيذ أوامره.

وإلى جانب ذلك فقد حضر عبد العال حلمى اجتماعا بمنزل سلطان باشا بناء على تعليمات عرابى وفيه تم التشاور فى مسألة عزل الخديو وكان عبد العال حلمى من الموافقين على ذلك، وبعد أن أصدر الخديو أوامره بعزل عرابى اعترض عبد العال حلمى على ذلك وتمسك ببقاء عرابى وندد بالخديو الذى يريد تسليم البلاد للانجليز وبيع البلاد لهم.

وعلى الرغم من تطورات الموقف فقد ظل عبد العال حلمى فى دمياط بعيدا عن الحرب ولم يشارك فى أى معارك ضد الانجليز حتى هزيمة التل الكبير. وبعد هزيمة التل الكبير طلب عرابى من عبد العال حلمى قائد دمياط التوجه إلى القاهرة وترتيب الجنود الموجودين بها فى نقط الدفاع ضد الانجليز ورد عليه عبد العال بأنه سيتحرك فورا إلى القاهرة ، ولكن مسيرة الحرب ونتائجها لم تمكنه من ذلك، وظل عبد العال حلمى يدعو للمقاومة حتى أرسل له الخديو إنذار بالتسليم وقد رفض عبد العال التسليم وأخذ فى الاستعداد للحرب ولكنه لم يجد بدا من قبول التسليم بعد استسلام جميع الجنود المصريين وتهديد الحكومة له بالاعدام فأصدر أمره إلى ضباطه بتسليم أسلحتهم وحوكم ونفى ضمن الزعماء المتبقين وصحبته زوجته وثلاثة من أفراد أسرته فى منفاه حيث عاش هناك حياة رتيبه شديدة الملل ، ونتيجة لاصابته بحساسية شديدة فى صدره توفى فى مارس عام ١٨٩١ وكان لموته حزن عميق فى نفوس أصحابه إذ رأوا فى مصيره شبح مصيرهم وقد ذكر عرابى نبا وفاته بقوله "وفى سنة ١٣١٠هـ توفى إلى رحمة الله شهيد الوطنية والغربة عبد العال باشا حلمى ودفن فى قرافه قسم مردانه وضريحه مشهور يزار ".

المصادر:

- أحمد عرابى الزعيم المفترى عليه، محمود الخفيف ، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤.
- القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية، لطيفة سالم ، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١.
- الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى، عبد الرحمن الرافعى، النهضة المصرية، ١٩٤٩.
- مصر للمصريين مائة عام على الثورة العرابية، مجموعة من المؤرخين، مركز الدراسات السياسية بالأهرام، القاهرة، ١٩٨١.
- كيف دافعنا عن عرابى وصحبه ، بردولى – ترجمة عبد الحميد سليم، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧.

علـــى باشا فهمـــى (*)

(- ٢٠ نوفمبر ١٩١١)

من مواليد المنوفية، توفى فى ٢٠ نوفمبر ١٩١١ وقد انضم للجيش كضابط من تحت السلاح منذ عام ١٨٥٥ مع فترات انقطاع متعددة عمل خلالها فى وظائف مدنية وخدم بالحرس الخديوى الخاص فى عهد اسماعيل وتزوج من احدى حريم القصر وشارك فى فض حركة الضباط امام وزارة المالية فى ١٨ فبراير ١٨٧٩، فبعد أن فشل الخديو فى فض المظاهرة ولم يستجب الضباط المحالين للاستيداع والمطالبين بصرف رواتبهم المتأخرة لنصائحه أمر باستخدام كتيبة الحرس الخديوى التى يقودها على فهمى بمحاصرة المتظاهرين واطلاق النيران عليهم، ومع أن على فهمى استجاب للأمر فانه طلب من جنوده أطلاق النار فى الهواء فقط للسيطرة على الموقف ونجح فى ذلك، وانضم على فهمى إلى الجمعية السرية التى أسسها على الروبى فى أواخر عصر اسماعيل تعبيرا عن سخط الضباط الوطنيين على سيطرة الشراكسة على أمور الجيش، والمطالبة بفتح باب الترقى أمام الوطنيين والتخلص من حكم إسماعيل. وفى عصر الخديوى توفيق تم ترقية على باشا فهمى وتعيينه ياورا وقائدا للحرس الخديوى الخاص، وعندما قامت الثورة العرابية تحمس لها وكان بمثابة العقل المدبر لعرابى، كما كانت له صفحات بطولة خلال مسيرتها فاشترك مع عرابى وعبد العال حلمى فى تقديم عريضة إلى رياض باشا رئيس النظار فى يناير ١٨٨١ للمطالبة بوقف الظلم الواقع على الضباط المصريين فى الجيش وبان يكون وزير الحربية مصريا ونتيجة لذلك أصدر الخديو أمرا باعتقال الضباط الثلاثة بتهمة التمرد والعصيان فأحيل على فهمى مع زميليه إلى مجلس عسكرى لمحاكمتهم مما أدى إلى وقوع حادث قصر النيل فى أول فبراير ١٨٨١ حيث قام الضابط محمد عبيد مع قواته باقتحام مقر المحكمة وإطلاق سراحهم وذهابهم إلى قصر عابدين لاطلاع الخديو غلى ما حدث وعرض مطالبهم عليه ومنها عزل عثمان رفقى، والغاء التمييز بين الضباط الوطنيين والشراكسة والذى انتهى بعزل عثمان رفقى من نظارة الحربية واسنادها إلى محمود سامى البارودى. وبعد أن اشتد عود الثورة وبرزت حاجتها إلى داعية من المدنيين لتوصيل أفكار العرابيين إلى عموم الشعب المصرى اتصل على فهمى بعبد الله النديم وطالبه بالدعوة للجيش علانية فاستجاب لذلك

(*) اعداد: د. عبد المنعم ابراهيم الجميعى، استاذ التاريخ الحديث والمعاصر، بكلية الآداب جامعة الفيوم.

واصبح من أكبر دعاة العسكريين ومن أشد المتحمسين لهم ولأفكارهم. وعلى الرغم من ان على فهمى كان قائدا للحرس الخاص فى قصر عابدين ، وكان مسئولا عـن الآلاى الأول المكلـف بحراسة القصر فقد سحب عساكره وساند العرابيين فى موقفهم خلال المظاهرة الذى حدثت أمام قصر عابدين رغم محاولات الخديو استمالته لتنفيذ ما يصدر إليه من أوامر وبعد نجاح العرابيين فى تحقيق مطالبهم قام الضباط الشراكسة بالتآمر ضدهم، وبعد انكشاف امرهم شارك على فهمى فى المحكمة العسكرية التى شكلت لمحاكمتهم والتى أصدرت حكمها بتنزيل رتب أربعين ضابطا منهم وحرمانهم من الامتيازات العسكرية ونفيهم إلى السودان ونظرا للخلاف الذى حـدث بـين الخديو والعرابيين نتيجة لصدور هذه الأحكام واعتراضه عليها وتدخل مجلس النواب لمعالجـة الموقف قدم القنصلان الانجليزى والفرنسى مذكرة تطالب بمغادرة عرابى للبلاد، والزام علـى فهمى وعبد العال حلمى وطلبة عصمت بعدم مغادرة منازلهم ، ولكن هذه المذكرة لم تنفذ لرفض العرابيين لها والتفاف الأهالى حولهم رغم موافقة الخديو عليها، وبعد سقوط وزارة محمود سامى البارودى استدعى الخديوى احمد عرابى وعلى فهمى وكبار الضباط وأبلغهم بـسقوط الـوزارة واحالة نظارة الجهادية عليه وأنه يجب تنفيذ أوامره من الآن فصاعدا دون غيره فاجابـه علـى فهمى وبعض الضباط بانهم لا يسمعون أوامره ما لم يـرفض المـذكرة الانجليزيـة الفرنـسية المشتركة.

كما حضر على فهمى اجتماعا بعزل سلطان باشا رئيس مجلس النواب، وطالبوا بعـزل الخديو ورفض المذكرة المشتركة لأنها تمس حقوق مصر. وبعد أن صدر أمر الخديوى توفيـق بعزل عرابى اعترض على فهمى على ذلك فى المجلس العرفى موضحا أهمية بقـاء عرابـى للدفاع عن الوطن والدين وندد بالخديو الذى أراد تسليم الـبلاد للانجليـز، وطالـب بـضرورة الاستمرار فى الحرب للدفاع عن الوطن والمقدسات وحفظ البلاد. وإلى جانب ذلك فقد شـارك على فهمى فى أداء اليمين الذى لقنه الشيخ محمد عبده لكبار الضباط والقسم علـى المـصحف بضرورة التكاتف لمحاربة الانجليز إذا فكروا فى غزو مصر وان من يخرج عن الصف يستحق قطع الرقبة وشق الصدر.

وبعد نشوب الحرب بين العرابيين والانجليز شارك على فهمى فى معركتى القصاصين الأولى والثانية حيث حضر من القاهرة ومعه آلاى المشاه الأول لشد أزر المقاتلين والمساعدة فى حفر الخنادق وأعمال الاستحكامات، وتولى قيادة قلب القوات المهاجمة للعدو، وتقـدمت قواتـه تحت نيران المدافع لمهاجمة الانجليز، وأبلى بلاء حسنا فى القتال وصمد لجهاد الأنجليز، وفـى

معركة القصاصين الثانية فى ٨ سبتمبر ١٨٨٢ تولى على فهمى القيادة وهاجم مواقع الانجليز فى معركة استمرت نحو ثلاث ساعات وثبت ثبات الأبطال إلى أخر المعركة التى كانت من أشد المعارك بين المصريين والانجليز حتى أصيب برصاصة فى ساقه فخسر الجيش المصرى باصابته خسارة كبيرة، وظل جريحا حتى أنتهت الثورة فكان قتاله البطولى فى معركة القصاصين موقفا مشرفا له وللثورة، كما كانت إصابته خسارة كبرى للجيش المصرى فى وقت كانت الحاجة إلى جهوده شديدة.

وفى أعقاب هزيمة الثورة العرابية تم اعتقال على فهمى وتقديمه للمحاكمة بتهمة التمرد والعصيان وحكم عليه بالاعدام وتجريده من رتبته العسكرية والقابه وعلامات الشرف الحائز عليها ومحو اسمه من دفاتر ضباط الجيش المصرى ومصادرة أملاكه ثم استبدال الحكم بالنفى المؤبد من القطر المصرى وملحقاته إلى سيلان مع تخصيص معاش لاعانته فى المنفى، على ان يتعهد بعدم العودة إلى مصر، ولو حدث وعاد إليها خلسة تطبق عليه عقوبة الاعدام بدون أى محاكمة. وقدم على فهمى قائمة بأسماء أفراد أسرته الذين سيصحبونه إلى منفاه، وهم حرمه وكريماته الثلاثة وخدمه، وأقام على فهمى فى كولومبو مع عرابى فى ظل حياة رتيبه شديدة الملل والمعاناة ثم انتقل معه إلى مدينة كندى مستسلما للأمر الواقع وتعاقبت السنون عليه وهناك اختلف مع عرابى، وحدث انشقاق بينهما فى ظل الظروف الصعبة التى تعرضا لها وفترات اليأس التى صاحبتهما وخلال ذلك أصيب على فهمى بأمراض الدوزنتاريا وعسر الهضم وتضخم الطحال والكبد لذلك صرح طبيبه المعالج أن حالته الصحية فى اضمحلال . وامتداد اقامته فى المنفى سيقضى على ما تبقى من حياته، ومع ذلك فان حاكم سيلان لم يستجب لذلك، وظل على فهمى منفيا بالجزيرة حتى صدر الأمر العالى فى ١١ يونيو ١٩٠١ بعفو الخديو عباس حلمى الثانى عنه فبارح الجزيرة فى ١٥ أغسطس ١٩٠١ ووصل إلى القاهرة فى أول سبتمبر، وانزوى فى منزله حوالى عشر سنوات منسيا بعيدا عن الناس حتى توفى بمنزله بالقاهرة فى ٢٠ نوفمبر ١٩١١.

مصادر الدراسة :

- الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى، عبد الرحمن الرافعى، النهضة المصرية، ١٩٤٩.
- القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية، لطيفة سالم ، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١.
- عرابى ورفاقه فى جنة آدم ، لطيفة سالم ، الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٧.
- مصر للمصريين أزمة مصر الاجتماعية والسياسية الكسندرشولش، ترجمة رءوف عباس، دار الثقافة العربية، القاهرة. د.ت.
- كيف دافعنا عن عرابى وصحبه ، برودلى – ترجمة عبد الحميد سليم ، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧.

اللواء على باشا الروبى[*]
(- ١٩ سبتمبر ١٨٩١)

فلاح مصرى من مواليد قرية (دفنو) احدى قرى مركز إطسا بالفيوم . تعلم فى كتـاب القرية فأجاد القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم ، ولما بلغ الخامسة عشر من عمره التحـق بالأزهر وقضى به عدة سنوات ثم انضم إلى صفوف الجيش فى عهد سعيد باشا ورقى من تحت السلاح إلى رتبه الملازم ثان، وتدرج فى الرتب العسكرية لكفاءته حتى وصل إلى رتبه البكباشى فى عهد الخديوى اسماعيل، وشارك فى الحملة التى وجهت إلى الحبشة عام ١٨٧٥ حيث عـين رئيسا لفرع المهمات، وهناك تقابل مع عرابى الذى كان يشغل وقتها منصبا إداريا حيث عمـل مديرا للنقل والحمل وهناك توطدت العلاقة بينهما، وأفصح كل منهما للآخر عن موقفه الوطنى، فانضم عرابى إلى الجمعية السرية التى أسسها على الروبى، وشارك فيها العديد مـن الـضباط الوطنين بغرض التخلص من الطبقة الجركسية فى الجيش وفتح أبواب الترقى أمـام الـضباط الوطنيين والتخلص من الخديوى اسماعيل.

ولما نما خبر هذه الجمعية إلى الخديو وعرف مقاصدها السرية حاول استقطاب أعضائها عن طريق سياسة اللين فاستدعى ثلاثة من كبارها وهم أحمد عرابى وعلـى الروبـى وطلبـه عصمت ، فلما مثلوا بين يديه وكشف أمرهم إعتذروا له موضحين ضياع حقوقهم الوطنية بعدم ترقيهم إلى المناصب العليا فى الجيش واحتكار الضباط الشراكسة لهذه المناصب، فوعد ببحـث الأمر ، وانعم على سبعين ضابطا وطنيا برتبة القائمقام وفى مقدمتهم عرابى وعلى الروبى.

وقد اتهم على الروبى بالاشتراك فى مظاهرة ١٨ فبراير ١٨٧٩ التى سارت إلى مقـر نظارة المالية للمطالبة بصرف مرتبات الضباط المفصولين المتأخرة، وتمت محاكمته مع احمـد عرابى وآخرين، ولكن انتهت المحاكمة ببراءته، وفى أعقاب ذلك ناقش عرابى مع زميليه على الروبى ومحمد النادى فكرة خلع الخديو اسماعيل، ولكن أحدا لم يجرؤ على تولى قيادة الخطـة، ثم ترك على الروبى وزارة الحربية وعين كبيرا لمعاونى وزارة الداخلية، ثم رئيـسا لمجلـس محكمة المنصورة ثم نقل رئيسا لمحكمة مصر. وعندما بدأت تباشير الثورة العرابية انضم على الروبى إليها، وعاد إلى صفوف الجيش، وأصبح من أشد المتحمسين للثـورة، ومـن أخلـص رجالها، وكانت ثقة عرابى به كبيرة لدرجة ان اشركه فى العديد من الأمور المؤثرة فى مسيرة الثورة. وعندما عين عرابى وزيرا للحربية تمت ترقية على الروبى إلى رتبه اللواء وكان مـن

---

[*] إعداد: د. عبد المنعم إبراهيم الجميعى، أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، بكلية الأداب جامعة الفيوم.

النادر ان يحصل مصرى على هذه الرتبة حيث كانت الرتب العليا فى الجيش قاصرة على الأتراك والشراكسة، كما حصل على لقب الباشوية فى عهد وزارة محمود سامى البارودى . وبعد أن انشئت نظارة للسودان عين على الروبى وكيلا لها حيث لعب دورا مؤثرا فى إدارة شئون السودان المصرى بعد ظهور الدعوة المهدية، واتجاهها إلى العنف فكان أول وكيل وزارة للسودان فى تايخ مصر وخلال ذلك كان يجتمع مع الضباط ويشجعهم على التآزر والتكاتف.

وبعد أن تآمر الضباط الجراكسة على الثورة العرابية شكل عرابى مجلسا عسكريا لمحاكمة المتهمين من خمسة عشر عضوا كان برئاسة على الروبى، وعندما أسس عرابى المجلس العرفى لادارة دفة الحكم فى مصر بعدما قرر الخديوى توفيق الاستسلام للانجليز ومعه كبار الأعيان، اختار على الروبى من بين اعضائه وكان دوره هاما فيما صدر من قرارات وما اتخذ من اجراءات، وعندما تأزمت العلاقة بين العرابيين والخديو، وقيام الخديو باصدار أوامره بعزل عرابى هاجم على الروبى الخديوى فى اجتماع الجمعية العمومية للمجلس العرفى كما أوضح دور عرابى فى الدفاع عن الوطن وشرف الدين واتهم الخديو بانه يريد تسليم البلاد للانجليز وطالب بضرورة الاستمرار فى الاستعدادات العسكرية وخلال ذلك قرر المجتمعون بقاء عرابى فى منصبه وزيرا للحربية ، وتليت فتوى شرعية بمروق الخديوى عن الدين لانحيازه لاعداء الوطن، وإلى جانب ذلك فقد شارك على الروبى فى أداء القسم الذى تم فى قشلاق عابدين ولقنه الشيخ محمد عبده لكبار الضباط الذين اقسموا اليمين بأن يكونوا يدا واحدة ضد الخديو وان يقاوموا الانجليز إذا حدثت الحرب وقاموا بغزو مصر من يخالف ذلك يكون خرج من دينه ويستحق القتل.

وعندما قامت الحرب بين العرابيين والانجليز عين عرابى اللواء على الروبى قائدا لمنطقة مريوط العسكرية ونتيجة لاصابة راشد باشا حسنى، وعلى باشا فهمى فى معركة القصاصين استدعى عرابى على الروبى لقيادة القوات المصرية برأس الوادى فى التل الكبير لثقته فيه وفى قدرته على إدارة الحرب لانه كما يذكر " كان حائزا لأعظم الصفات الممدوحة التى لا يمكن القيام بحصرها " وحضر على الروبى إلى منطقة التل الكبير يوم الثلاثاء ١٢ سبتمبر ١٨٨٢ ووضع خطة المعركة مع عرابى لينفذها مع حوالى خمسة وعشرين ألف مقاتل فى حين كان عدد القوات الانجليزية تزيد عن ٣٠ ألفا ولكن الوقت لم يسعفه حيث فاجأ الانجليز قواته بعد ساعات قليلة من وصوله مما جعله لم يتمكن من تنفيذ خطته وإعادة تنظيم قواته، يضاف إلى ذلك ان عناصر الخيانة فتحت صفوف الجيش المصرى للانجليز حيث لم ينفذ

البعض كما يقول عرابى فى مذكراته أوامر على باشا الروبى، والواضح أنه كان من الصعب على أى قائد عسكرى ان ينظم قواته ضد أعداء تمكنوا من السيطرة على العديد من المواقع فى ظرف ساعات فقد حضر على الروبى عصر يوم ١٢ سبتمبر وكانت المعركة فجر ١٣ سبتمبر. ورغم أننا نقدر ظروف على الروبى إلا أنه يؤخذ عليه عدم صموده وهو قائد تلك المعركة بل كان ممن تركوا قواتهم بلا قيادة حقيقية وسافر إلى بلبيس دون أن يرتب خطط انسحاب جنوده الذين كان الانجليز يطاردونهم ، وفى بلبيس تقابل على الروبى مع عرابى الذى كان يحاول جمع فلول الجيش ومنع العدو من الوصول إلى القاهرة ولما كانت القوات الانجليزية تطارده اتجه مع على الروبى إلى القاهرة فى قطار، وذهب إلى مقر ديوان الداخلية بقصر النيل ودعا المجلس العرفى للحضور وعقد مجلس يضم القادة العسكريين واعيان القاهرة لأخبارهم بأمر الهزيمة ومشاورة أهل الرأى فيما يمكن فعله وبعد أن استعرضوا الأمور استقر الرأى على المقاومة وإجراء ترتيب نقط عسكرية للدفاع عن القاهرة، ولكن الاستعدادات والذخيرة كانت لا تكفى للمقاومة فعادوا إلى المجلس العرفى وعرضوا عليه الموقف فتقرر الكف عن القتال والتسليم وتحرير عريضة إلى الخديو يلتمسون فيها العفو والاعتذار خاصة وان ما قام به عرابى كان دفاعا عن الوطن والدين وتشكيل وفد لتسليم هذه العريضة للخديو بالاسكندرية وكان على الروبى ضمن أعضاء هذا الوفد وسافر الوفد بقطار خاص إلى كفر الدوار فى طريقه إلى الاسكندرية وهناك تراجع بعض أفراده عن الذهاب إلى الخديو واتفق على الاكتفاء بذهاب رئيسه على مبارك واحمد بك السيوفى وعاد الباقى إلى القاهرة خشية القبض عليهم وعلى الرغم من أن الخديو أمر على الروبى بالحضور لمقابلته فقد عاد على الروبى إلى القاهرة خشية قبض رجالات الخديو عليه ومعاقبته وفى القاهرة وجد عرابى وبعض زملائه قد سلموا انفسهم للانجليز، وأن الانجليز واتباع الخديو استطاعوا السيطرة على زمام الأمور . فقام بتسليم نفسه وقدم إلى المحاكمة العسكرية حيث تمت محاكمته فى ثلاث جلسات، وكان موقفه شجاعا ومشرفا، فأجاب بصراحة على كل ما وجه إليه من تهم ، فاعلن مسئوليته عن جميع الأعمال التى شارك فيها أو قام بها ، ولم يلق أى لوم على زملائه فى الثورة كما رفض تقديم التماس بالعفو عنه إلى الخديو، فعندما سئل عن سبب ختمه على قرار المجلس العرفى برفض أوامر الخديو الخاصة بعزل عرابى ذكر ان الخديو كان محجورا عليه بطرف الانجليز وانه ختم على القرار برضائه لان استمرار المدافعة عن الوطن واستمرار التجهيزات لأجل إفشال خطط الانجليز الاستيلاء على البلاد أمر يفرضه الدين والواجب، فحكم عليه بالنفى إلى منطقة مصوع

بالسودان لمدة عشرين عاما وتجريدة من رتبه ونياشينه ، ولم يمض على نفيه عامان حتى اعتلت صحته، وضعف بصره ، فنقل إلى سواكن منفيا تحت الملاحظة، وكانت رداءة الطقس قد اثرت على صحته ففقد بصره ، ونظرا لضيق ذات اليد خلال فترة النفى طلب من أخيه أن يبيع له املاكه التى كانت بقريته بدفنو وتبلغ ثلاثمائة فدان ليستطيع العيش منها والأنفاق على نفسه خلال فترة نفيه ولكن لم يلبث الموت ان عاجله ، فتوفى فى سواكن يوم ١٩ سبتمبر ١٨٩١، ودفن فيها ، ولم تزل رفاته هناك حتى اليوم.

المصادر:

- محافظ الثورة العرابية محفظة رقم ١٣ ملف ٢٤٩.
- كيف دفاعنا عن عرابى وصحبه ، برولى - ترجمة عبد الحميد سليم ، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٧.
- الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ، عبد الرحمن الرافعى، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٩.
- مذكرات عرابى، كشف الستار عن سر الأسرار، ٣ أجزاء تقديم ودراسة د. عبد المنعم الجميعى ، دار الكتب المصرية، ٢٠٠٥.
- مرآة العصر فى تاريخ ورسوم أكابر الرجال فى مصر، الياس زاخوره ، القاهرة، ١٨٩٧.
- مصر للمصريين - أزمة مصر الاجتماعية والسياسية ، الكسندر شولش - ترجمة رءوف عباس، دار الثقافة العربية، ١٩٨٣.

الأميرة نازلي فاضل(*)

١٨٥٣ - ٢٧ ديسمبر ١٩١٣

أميرة من الأسرة الخديوية، ابنة الأمير مصطفى فاضل نجل ابراهيم باشا ابن محمد على ، ولدت فى عام ١٨٥٣ وتوفيت فى ٢٧ ديسمبر ١٩١٣ أسماها والدها (نازلى زينب) وكانت الأسماء المزدوجة عادة شائعة لدى الأسرة العلوية فى ذلك الوقت، نشأت نازلى وسط جو يحمل مزيجا من العادات الشرقية التى اكتسبتها خلال تواجدها بالآستانة، ومن الثقافة الأوربية خاصة الفرنسية خلال مصاحبتها لوالدها فى الإقامة بالخارج أثناء فترة الصراع بينه وبين الخديوى اسماعيل، وظلت مقيمة بالخارج حتى وفاة والدها فى عام ١٨٧٥. تزوجت نازلى مرتين الأولى فى عام ١٨٧٣ من "خليل باشا شريف" سفير الدولة العثمانية فى لندن. وأنجبت منه ابنتها الوحيدة "حواء هانم" التى توفيت فى طفولتها . وبعد وفاة زوجها استقرت بعاصمة الخلافة حيث ضاق بها السلطان عبد الحميد ذرعا لعلاقتها بجماعة تركيا الفتاة، فاضطرت للإقامة فى مصر فترة حيث ضاق بها الخديو عباس الثانى ايضا، وفى عام ١٨٩٩ تزوجت من "خليل بوحاجب" رئيس القسم الجنائى فى تونس والذى تولى منصب رئيس الوزراء بعد ذلك وأقامت معه فى تونس لفترة لم تستمر طويلا، عادت بعدها إلى القاهرة ، واقامت فى قصرها بعابدين حيث أسست أول صالون ثقافى فى تاريخ مصر المعاصر شهد ذروة دورها فى الحياة الثقافية بمصر.

وقد اجتذبت فى هذا الصالون صفوة المفكرين والأعلام من أشهرهم جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين وأديب اسحق وسليم النقاش وابراهيم الهلباوى واحمد فتحى زغلول، وحسين رشدى باشا وإبراهيم المويلحى وغيرهم من قادة الرأى والفكر والسياسة الذين لعبوا أدوارا هامة فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر، كما ضم هذا الصالون بين جنباته كبار المسئولين الإنجليز أمثال "اللورد كرومر" المعتمد البريطانى فى مصر، و "هارى بويل" السكرتير الشوقى و"اللورد كتشنر" والمستشرق "رونالد ستورز" وغيرهم. وفى هذا الصالون نوقشت

(*) إعداد دكتور عبد المنعم ابراهيم الجميعى، أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ، بكلية الآداب جامعة الفيوم.

مسائل الإصلاح الاجتماعى وأحوال المرأة المصرية، كما نوقشت طرائف العلوم والفنون وخلاصة الفكر الراقى ، وفيه دافعت نازلى فاضل عن عرابى وثورته، ولم تمل الكلام عن نزاهة اغراضه، وربما يرجع السبب فى ذلك إلى كراهيتها للخديو توفيق الذى إنتزع عرش مصر من والدها وفى هذا الصالون تولدت المشاعر القومية بعد فترة من الكبت السياسى والفكرى والأدبى، خاصة وأنها كانت على علاقة بأعضاء جماعة تركيا الفتاة ، وبجمال الدين الأفغانى وإلى جانب ذلك فقد توثقت علاقتها بالشيخ محمد عبده بعد عودته من منفاه واستطاعت ان تؤثر على أفكاره فى وجوه عدة، كما كان تأثيرها واضحا على آخرين فقد لعبت دورا مهما فى حياة سعد زغلول وقاسم أمين، كما كانت لها علاقات مع محمد فريد وغيره من كبار السياسيين المصريين. وحول علاقة الأميرة بالشيخ محمد عبده فقد استطاعت أن تؤثر فى أفكاره بشأن عملية الاصلاح فى مصر، حيث تغيرت أفكاره من التشدد إلى الإعتدال فأوضح أن اصلاح الأمة لا يتحقق إلا عن طريق التربية والتعليم والاستنارة، وتكوين أفرادها علميا وفكريا وانه لا يمانع فى الإستعانة بالانجليز على نوال بعض الاصلاح كما انه قاد عملية التفاهم بين السلفية والتحديث وأباح للعقل المصرى ان يفكر عن متحرج او متحفظ فى أمور الدين والسياسة والاجتماع وعرض كل شئ للنقد، واستخلاص الحقيقة دون قيود، يضاف إلى ذلك انه تعرض لموضوعات لم يكن قد تعرض لها من قبل فقام بالحديث عن فوائد حفظ الأثار وأجاز للرسامين عملهم ، وهذا الكلام لم يكن يخرج من شيخ أزهرى مثل الشيخ محمد عبده لولا تأثير الأميرة عليه، وربما كان اهتمام الشيخ محمد عبده بإتقان اللغة الفرنسية بتأثير من الأميرة أيضا وعن علاقة سعد زغلول بالأميرة فقد تمت عن طريق أستاذه الشيخ محمد عبده، فشجعته على دراسة الحقوق، وعلى تخطى الحاجز الاجتماعى وتعلم الفرنسية.

وبالنسبة لقاسم امين فقد استطاعت الأميرة تغيير مفهومه عن المرأة، فبعد أن كان يدافع عن الحجاب ويندد بالسفور تغيرت أفكاره بعد مقابلته لها، وبدأ يتحول من النقيض إلى النقيض وأصدر كتابه "تحرير المرأة" بتشجيع منها كما أصدر كتابه "المرأة الجديدة" بعد ذلك اما عن علاقة الأميرة بمحمد فريد فلم تكن طيبة فى أول الأمر نظرا لكراهيتها لمصطفى كامل ، واتهامه بالمتاجرة فى الوطنية، ومع ذلك فقد كان يحترم أفكارها ويقدر دورها ، ومعنى ذلك ان الأميرة نازلى شاركت فى صناع بعض

الزعامات المصرية وصقل أفكارها فلم تظهر نزعة الشيخ محمد عبده إلى تحسين أحوال المرأة إلا بعد مقابلته للأميرة وتأثره بأفكارها، ولم تظهر زعامة سعد وتتألق بعد تأخرها على المقاعد الخشنة فى (قهوة متاتيا) إلا بين الباشوات فى صالون الأميرة، وبعد مصاهرته للطبقة الارستقراطية، ولم يتغير نظرة قاسم أمين عن الحجاب ولم يدع إلى تحرير المرأة إلا بعد مقابلته للأميرة التى تميزت جلسات صالونها بجذب الزعامات المصرية المعتدلة فى ثقافتها ووطنيتها.

لقد وصف البعض نازلى فاضل بأنها أميرة التنوير، ووصفها البعض الأخر بأنها عميلة للاحتلال، وعن كونها أميرة التنوير فالحقيقة انها سبقت عصرها بما تمكنت به من علم وبما أثرت به من فكر فكانت تتكلم الفرنسية كإحدى بنات السين ذوات الثقافة العالمية والأدب الرفيع .

هذا إلى جانب أنها كانت تجيد اللغات الانجليزية والتركية والعربية والألمانية، وانها كانت من أوائل من شاركن فى حركة التنوير الفكرى وإيقاظ الحياة المصرية العامة مع بعض نساء الأسر الراقية ، وأنها شاركت فى صنع بعض الزعامات المصرية أمثال سعد زغلول قاسم أمين، حيث تم صقل هذه الزعامات وتطوير بعض مفاهيمها، أما عن كونها عميلة للاحتلال فقد تعرض البعض لذلك مستندين إلى انها كانت إنجليزية الهوى والتفكير، وان كبار الإنجليز فى مصر كانوا من رواد صالونها، ومن أصدقائها الخصوصيين، ومع ان ذلك يعد صحيحا إلى حد كبير خاصة وان لها بعض الأراء السلبية عن المصريين وعن أساليب حياتهم ومعيشتهم فيجب أن نذكر أنها دافعت عن عرابى وثورته، كما سعت لتخفيف العقوبة على إبراهيم الوردانى قاتل بطرس غالى المعروف بصداقته للانجليز، وإلى جانب ذلك فليس من المعقول ان يقبل رجال يضرب بهم المثل فى الوطنية وحب مصر مثل سعد زغلول ومحمد عبده وقاسم أمين ان يكون لهم صداقة بسيدة لا تحترم المصريين، ولا تقدر دورهم.

والخلاصة أن صالون نازلى كان بجانب كونه منبرا ثقافيا يتدارس فيه رواده القضايا الثقافية والسياسية وأحوال البلاد فقد كان يمثل جبهة فكرية ترد على مزاعم المستشرقين الذين قاموا بنشر كتب ومقالات تنال فى مصر وشعبها، وتصوره فى صورة مجتمع متخلف وشعب جاهل وأبرز الأمثلة على ذلك تصدى الصالون لكتاب "سر تأخر المصريين" الذى كتبه قاض فرنسى اسمه " الدوق داركور" كان يعمل

بالمحاكم المختلطة، فاستحثت الأميرة نازلى المصلح الاجتماعى قاسم امين بالرد عليه بشكل يقوم على المنطق والحجج الدافعة، وليس على العبارات المنبعثة من الانفعال العاطفى، فقام قاسم امين بتأليف كتابه "المصريون" للرد على هذا الدوق، برهن فيه على قدرة مصر على النهوض وقدرة المصريين على مسايرة ركب التقدم وقهر التخلف.

وهكذا استطاعت الأميرة نازلى التى تفوقت على معظم نساء عصرها فى الشرق أن تؤدى دورها الطليعى فى خدمة الحياة الفكرية المصرية وان تهيأ المناخ الفكرى لحركة التغيير التى كانت تترقبها مصر حتى وافاها الأجل فى الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩١٣.

مصادر الدراسة

- أثر المرأة فى حياة الشيخ محمد عبده، مصطفى عبد الرازق، مجلة الرسالة فبراير ١٩٣٧.
- الأميرة نازلى فاضل رائدة النهضة فى مصر وتونس، أبو القاسم كرو تونس، ٢٠٠٢.
- تاريخ الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده، جـ١ ، محمد رشيد رضا، القاهرة، ١٣٥٠هـ.
- دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، عبد المنعم الجميعى، القاهرة، ١٩٩٦.
- مذاكراتى بعد الهجرة ١٩٠٤ - ١٩١٩، أوراق محمد فريد، المجلد الأول، القاهرة، ١٩٧٨.

محمد عبد الوهاب وتطور فن الموسيقى والطرب

د . عبد المنعم إبراهيم الجميعى

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

عندما يُكتب تاريخ الموسيقى العربية فى العصر الحديث سيقف الموسيقار "محمد أبو عيسى حجر" المعروف بمحمد عبد الوهاب قمة شامخة تطل بألوان من الإبداع ، وتروى تاريخا لتطور الأغنية العربية مع موهبة فريدة قل أن يجود الزمان بمثلها ، فقد امتلك عبد الوهاب ناصيتى الإبداع الموسيقى والغنائى لفترة غطت القرن العشرين . فلا غرو أنه البلبل الصداح الذى حرك أوتار القلوب بصوته العذب ، وألحانه البديعة ، وأنغامه الجميلة ، والذى استطاع أن يثبت أن الصوت البشرى يعد من أعظم الآلات الموسيقية سحرا . فقد أمتاز عبد الوهاب بخصوبة صوتية فى الأربعينيات والخمسينيات فضلا عن جمال الأداء وحلاوة الصوت التى خلقها الله معه كما تميز بخصوبة لحنية فى الستينيات والسبعينيات[1] حتى دانت له الزعامة فى اللحن لا ينازعه فيها منازع .

ولما كانت دراسة هذه الظاهرة الفنية المميزة لا تكتمل بغير دراسة دقيقة للبيئة التى عاش فيها عبد الوهاب والمؤثرات التى ساعدت على ظهورها فإننا سنحاول مسايرة هذا الاتجاه .

نشأة عبد الوهاب والمؤثرات التى ساعدت على ظهوره :

ولد عبد الوهاب حسب أرجح الأقوال فى ١٣ مارس ١٩١٠ بحارة الشعرانى (باب الشعرية) بالقاهرة مفطورا على حب الموسيقى وقد لاقى فى سبيلها صعابا استطاع أن يتغلب عليها بثباته ومثابرته . وكان لحفظه القرآن الكريم وتجويده ، وأدائه للمدائح النبوية وصعوده على مئذنة الشيخ الشعرانى مؤذنا للصلاة [2] أكبر الأثر فى تكوين صوته الموسيقى وتهيئته تهيئة صالحة للنمو والاستمرار ، وصقل مخارج الحروف .

وقد بدأ عبد الوهاب حياته الفنية أيام الشيخ سلامة حجازى قبيل الحرب العالمية الأولى بتقديم فقرات طرب بين فصول المسرحيات بمسرح عبد الرحمن رشدى مستغلا

---

(١) محمد شلبى : مع رواد الفكر والفن ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٢ ص ١٨٧ .

(٢) كمال النجمى : الغناء المصرى ص ١١٩ .

فى ذلك صوته العذب ،كما تأثر بطريقة الشيخ سلامة حجازى فى الغناء ، وقلدّ قصائده وموشحاته[1] . وكان حلمه الذهبى أن تهتف الناس ذات يوم باسم الشيخ محمد عبد الوهاب ، كما كانوا يهتفون باسم الشيخ سلامة[2] . وبعد وفاة الشيخ سلامة عمل عبد الوهاب منشدا فى فرقة الكورال التى كانت معروفة باسم فرقة على الكسار وعن طريق ذلك عرف كل أوبريتات سيد درويش وتأثر بطريقة تلحينه وتجليات تعبيره كموسيقى موهوب نجح فى تصوير الأغنية ، وظل يلازمه كظله فى غدواته وروحاته يسمع منه ويردد ألحانه . وعندما يعود إلى بيته المتواضع فى باب الشعرية مع الفجر ينقل النوته لتلك الألحان على ضوء مصباح خافت .

عبد الوهاب متربعا على عرش الطرب :

لقد نجح عبد الوهاب فى تغذية روح المستمع العربى فاكتسحت أغانيه ساحة الغناء فى مصر والعالم العربى ، ونال شهرة لا مثيل لها وتقدم بسرعة على أكبر مطربى عصره أمثال صالح عبد الحى وعبد اللطيف البنا وغيره خاصة وأنه أدخل للموسيقى العربية تجديدات عديدة متأثرة بالموسيقى الغربية التى بدأت الأذن العربية تحس بجمالها وتألف سماعها مما أجلسه على عرش الطرب وجعل منه كروانا حقيقيا ولما بدأ عهد الأغنية السينمائية قدم عبد الوهاب العديد من الأشكال المتنوعة للأغنية والقطع الموسيقية[2] فسلك طريق الأغنية العاطفية أساسا وكانت أغانيه فى أفلامه مثل "كلنا نحب القمر" ولما أنت ناوى تغيب على طول" و"فى الليل لما خلى" وبقية الروائع ، ولم تقتصر أغانى عبد الوهاب على ذلك بل عبر بعضها عن أجواء تاريخية كما فى "كليوباترا" و"الجندول" و"الكرنك" ولم تقتصر جهود عبد الوهاب الفنية على ذلك بل تطرقت إلى الأغانى الوطنية التى قدمها فى فترة الخمسينيات والستينيات وشارك بها فى أفراح بلاده وأتراحها فقدم العديد من الأغانى الوطنية منها "ذكريات" "قولوا لمصر" و"الوطن الأكبر[3]" و"صوت الجماهير" وبعد هزيمة ١٩٦٧ قدم مجموعة رائعة من الأغنيات الرافضة للهزيمة والمطالبة بتحرير الأرض مثل "حى على الفلاح" و"سواعد من بلادى" "حرية أراضينا" . ولبث عبد الوهاب وحده متربعا على عرش الطرب ، وعملاقا فى شارع الفن ، ورائدا لحركة التجديد فى الأغنية المصرية واستمر يقدم ألحانه فى وصلات غنائية دورية ، مفضلا ألا يكون ذلك فى حفلات بالمسارح كما تفعل أم كلثوم بل يكون من

---

(١) رتيبه الحفنى : مرجع سابق ص ٧٠-٧٧ .

(٢) عصمت كامل : مرجع سابق ص ٣٠٤ .

(٣) شاركت فى هذا النشيد عدد كبير من المطربين والمطربات منهم عبد الحليم حافظ ونجاة الصغيرة ، وصباح ، وشادية ، وفايزة أحمد ، ووردة الجزائرية .

إستوديوهات الإذاعة حتى يتحرر من قيود طلبات الجمهور ، وطلبا للحد الأقصى من الإتقان [١] واستمر عبد الوهاب لا يزاحمه أحد لأن جميع الذين جاءوا بعده كانوا أقل منه فى ناحيتى الصوت والتلحين ، كما أنه كان المنهل الذى ارتوى منه كل ملحن ومطوب ، وظل رائدا لمدرسة انتشرت فى كل أرجاء مصر فعندما ظهر عبد الغنى السيد كان صوتا فقط ، لم يكن يملك موهبة التلحين ، وعندما ظهر فريد الأطرش استطاع بفضل موهبته فى التلحين منافسة عبد الوهاب لفترة وكان صراعهما صراع يلعب فيه الفن الموسيقى الدور الأول ولكن ذلك لم يستمر طويلا لتحول نشاط فريد إلى الأفلام الغنائية ومع ذلك فقد ربحت الحياة الموسيقية من ورائهما أعمالا فنية رائعة .

أما عبد الحليم حافظ الذى كان صاحب أحب الأصوات إلى الجماهير وإلى عبد الوهاب نفسه فيمكن اعتباره امتدادا لحركة عبد الوهاب التجديدية من حيث أسلوب الغناء والتلحين وما فيهما من بساطة وخليفته فى الشهرة ، وليس فى موهبه الصوت والتلحين[٢] .

ما بين أم كلثوم وعبد الوهاب

لقاء القمة بين أم كلثوم وعبد الوهاب ما هو أسباب تأخره طوال هذه السنين ، وكيف تعرف عبد الوهاب على أم كلثوم وهل ما كان بينهما منافسة أم جفاء وما هو الوسيط الذى جمع بينهما أخيرا ؟ كل هذه أسئلة طرحها البعض واختلفوا فى تفسيرها وفيما يلى نعرض لذلك .

لقد روجت صحافة الثلاثينيات والأربعينيات لما بين أم كلثوم وعبد الوهاب من تنافس وصل إلى حد القطيعة وانقسم الرأى العام فى الإشادة بفن كل منهما لدرجة أنه بعد أن نشرت إحدى المجلات فى عام ١٩٣٣ أن عبد الوهاب سيقوم بتمثيل فيلم "الوردة البيضاء" ترددت شائعة تقول إن أم كلثوم ستمثل فيلما اسمه "الوردة الحمراء" ولما قامت أم

---

(١) ترجع حقيقة ذلك الأمر إلى أن عبد الوهاب صدد فى إحدى حفلاته الحية برفض الجمهور الاستماع إلى أغنيته الجندول مفضلا سماع المواويل وأغنيات الطرب مثل "مين عذبك" و"لما أنت ناوى" فاطلق صيحته المعروفه أريد أن أشد الجمهور لا أن يشدنى واستبدل الحفلات المسرحية بالتسجيلات الإذاعية .

للتفاصيل أنظر : إلياس سحاب مقال سبق ذكره ص ٥٦ .

(٢) النجمى : مرجع سابق ص ٤٠١-٤٠٠ .

كلثوم بالتمثيل فى فيلم "وداد" دبت روح الغيرة فى عبد الوهاب ، فأسند بطولة فيلمه الثانى "دموع الحب" إلى أشهر مطربة بعدها حينذاك وهى "نجاة على" ونتيجة لذلك حدثت محاولات عديدة تهدف للجمع بينهما فى عمل مشترك فبذل طلعت حرب جهودا من أجل ذلك ولكنه لم يوفق واستمر التنافس على عرش الغناء بينهما ، وكل منهما يحاول أن يجذب إليه جمهور الآخر حتى نجح الرئيس عبد الناصر فى تحقيق اللقاء بينهما فى لحن واحد ، ففى الاحتفال السنوى بثورة يوليو عام ١٩٦٣ أقام نادى الضباط حفلا ساهراً حضره الرئيس عبد الناصر وكانت أم كلثوم وعبد الوهاب من المدعوّين فى الحفل ٠ وفى أثناء تقديمهما التهانى بالعيد للرئيس طلب عبد الناصر منهما تقديم عمل فنى مشترك ، وكانت "إنت عمرى" التى غنتها أم كلثوم فى ١٢ فبراير ١٩٦٤ بداية هذا العمل الذى حقق نجاحا جماهيريا كاسحا ، وكانت مزيجا براقا من الجمل العذبة والإيقاعات الراقصة فى مقدمة موسيقية طويلة استغرقت ربع ساعة إستمع إليها أكثر من مئة مليون عربى عبر الأثير[١] ٠ وقبل أن تبدأ أم كلثوم فى الغناء ، وحرصا من عبد الوهاب على نجاح هذه التجربة وقف خلف الستار يقرأ القرآن الكريم وهو يجرى البروفات الأخيرة خاصة على مقدمته الموسيقية ، كما شاركته أم كلثوم فى البروفات الأخيرة ٠

وعندما بدأت أم كلثوم فى الغناء وقف عبد الوهاب وهو يرتجف خشية الفشل يستمع لقيثارة السماء تشدو بألحانه لهذه الأغنية الرفيعة المعانى التى وضع كلماتها الشاعر أحمد شفيق كامل ، وظل عبد الوهاب يسمع من خلف الكواليس وقلبه يخفق وكانت يداه لا تكفان عن الحركة ، وشفتاه ترددان آيات من القرآن الكريم حتى صفق الناس لمقدمته الموسيقية وطالبوا بإعادتها أكثر من مرة والناس تصفق ، ثم بدأت أم كلثوم تغنى والناس تتمايل طربا ٠

رجعونى عينيك لأيامى اللى راحوا   علمونى أندم على الماضى وجراحه

اللى شفته قبل ما تشوفك عينيه   عمر ضايع يحسبوه إزاى عليه

انت عمرى اللى ابتدا بنورك صباحه

قد إيه من عمرى راح وعدا   يا حبيبى قد إيه من عمرى راح

ولا شاف القلب قبلك فرحة واحدة   ولا داق فى الدنيا غير طعم الجراح

---

(١) زينب الحفنى : مرجع سابق ص ٩٢-٩٨ ٠

ابتديت دلوقت بــس أحــب عمــرى ابتديت دلوقت بس أخاف للعمــر يجــرى

كل فرحة إشتقها من قبلـك خيـالي إلتقاها من نــور عنيـك قلبـى وفكـرى

يا حياة قلبى يا أغلـى مـن حيـاتى ليه ما قابلنيش هواك يا حبيبـى بـدرى

واللى شفته قبل ما تشـوفك عنيـه عمـر ضـايع يحسبوه إزاى عليـه

انـت عمـرى اللـى ابتـدا بنـورك صباحـه

الليالى الحلـوة والشـوق والمحبـة مـن زمـان والقلـب شـايلهم عشـانك

دوق معايا الحب دوق حبـه بحبـه من حنان قلبى اللى طال شـوقه لحنـانك

هات عنيك تسرح فى دنيتهم عنيـةً هـات إديـك ترتـاح للمسـتهم إديَّـه

يا حبيبى تعالى وكفايه اللـى فاتنـا هو فاتنـا يـا حبيـب الـروح شـويه

واللى شفته قبل ما تشـوفك عنيـه عمـر ضـايع يحسبوه إزاى عليـه

إنـت عمـرى اللـى ابتـدا بنـورك صباحـه

يـا أغلـى مـن أيـامى يـا أحلـى مـن أحلامـى

خدنـى بحنـانك خدنـى عـن الوجـود وابعدنـى

بعيـد بعيـد أنـا وانـت بعيـد بعيـد وحدينـا

ع الحـب تصحـى أيامنـا علـى الشـوق تنام ليالينـا

سـامحت بيـك أيـامى صـالحت بيـك الزمـن

نسـيت بيـك آلامـى ونسـيت معـاك الشـجن

رجعونى عنيك لأيامى اللـى راحـوا علمونى أندم علـى المـاضى وجراحـه

اللى شفته قبل مـا تشـوفك عنيـه عمـر ضـايع يحسبوه إزاى عليـه

انـت عمـرى اللـى ابتـدا بنـورك صباحـه

لقد بكى عبد الوهاب وهو يسمع الناس تستزيد أم كلثوم حتى أعادت المذهب ست مرات وهم يصفقون ويهللون بطريقة غريبة من الإعجاب ، ولما اطمأن عبد الوهاب لهذا النجاح عاد إلى بيته ليستمع إلى بقية الأغنية فيه ، وبعد أن انتهت الأغنية أرادت أم كلثوم أن يكون عبد الوهاب معها أثناء تحية الجمهور ولكنه اعتذر بلباقة بحجة أنه يخاف كثيرا من مواجهة الجماهير .

وهكذا كان هذا اللقاء التاريخى خطوة كبيرة إلى الأمام ، لحن عبد الوهاب كلماته حرفا حرفا ، فعندما شدت أم كلثوم الليالى الحلوة ، أو دوق معايا الحب يشعر الإنسان أن هناك دعوة للحب ، وفى لحن يا حبيبى تعالى وكفاية اللى فاتنا يحس المستمع إلى أن هناك تضرع وابتهال إلى الجالس فى معبد الحب ، وهكذا كانت كل كلمة من الأغنية تشعر من يسمعها أن الذى لحنها تفحص حروفها حرفا حرفا وعاش فيها أياما وليالى قبل أن تخرج إلى الناس . وهكذا ظلت الأغنية خالدة ترددها الأجيال المتعاقبة دون أن يخبو لمعانها [1] ثم تبع ذلك أعمال مشتركة بينهما وهى :إنت الحب" و"أمل حياتى" و"فكرونى"، و"هذه ليلتى" و"دارت الأيام" و"غداً ألقاك" و"ليلة حب" و"على باب مصر" و"أصبح عندى الآن بندقية" . لقد نجح عبد الوهاب بتقانينه وتقاليعه الموسيقية وأن يكون مختلفا مع أم كلثوم عمن سبقوه فوضع ألحانه فى إطار مبهر استطاع به تقريب أم كلثوم من أذواق الشباب ، مما أوجد جمهورا من الجيل الجديد الذى إزدادت حماسته لأم كلثوم ، كما أن الحان عبد الوهاب استطاعت أن تقدم شيئا جديدا لهذا الصرح الشامخ[2] .

لقد نجح عبد الوهاب فى أن يفيد من أم كلثوم وتأثيرها على الجمهور ، كما استفادت أم كلثوم من عبقرية عبد الوهاب الموسيقية خاصة وأن كلا منهما أحدث إنقلابا كبيرا إنسابت فيه ألحان عبد الوهاب من شفتى أم كلثوم وانطلق صوت أم كلثوم من تجليات عبد الوهاب .

والسؤال كيف تواصل اللقاء بين عبد الوهاب وأم كلثوم وما هى أحلام كل منهما التى لم تتحقق ، ولماذا لم تتحقق ؟ وهل تحول عبد الوهاب إلى كلثومى أم أصبحت أم كلثوم تعتنق موسيقى عبد الوهاب ؟ ومن منهم أثر فى الآخر وكيف استطاع عبد الوهاب أن يقنع أم كلثوم بالجديد فى استخدام الآلات الموسيقية ؟

---

(١) مصطفى التيوانى : قصة حياتى . مرجع سابق ص ٢٦١-٢٦٨ .

(٢) سهير عبد الفتاح : مرجع سابق ص ١٢٤ .

كل هذه التساؤلات أجاب عليها عبد الوهاب فى حواره مع سعد الدين وهبه والذى ذكر فيه أنه فكر مع أم كلثوم فى أن يشتركا معا فى اختيار قصائد غنائية لشعراء عرب من كافة البلاد العربية ، بحيث يكون لكل بلد عربى أغنية من نظم أحد شعرائه وتم تنفيذ الفكرة بجورج جرداق فى "هذه ليلتى" ، بالهادى آدم من السودان فى "أغدا ألقاك" وكانا فى الطريق إلى اختيار قصيدة للشاعر التونسى أبو القاسم الشابى • كما فكرا فى تلحين وغناء "مجنون ليلى" ذلك الكنز العظيم الذى تركه شوقى ولكن القدر لم يمهل أم كلثوم المشاركة فى ذلك ، فقد وافتها المنية قبل تحقيق ما إتفقا عليه[1] •

وبالنسبة لأثر ألحان عبد الوهاب على غناء أم كلثوم فيتضح أن أم كلثوم كانت قبل عبد الوهاب تغنى للخاصة ، فلما لحن لها عبد الوهاب أخرجها عن سلوكها الفنى الكلاسيكى فاستمع إليها العامة وكان لموسيقاه ذات الايقاعات الراقصة المتحركة وإدخاله الآلات الكهربائية الحديثة مثل "الأورج" و"الجيتار" أكبر الأثر فى استماع العامة لها ، وكانت هذه بداية النقلة فى أم كلثوم من القديم إلى الجديد ، فقد غيرت فى طريقة التأدية لتتواءم مع اللحن • وفى الحقيقة أن أم كلثوم كانت تستطيع التلاؤم مع الظروف المتغيرة ، ومع الموجة الحديثة أيضا فقد قربت أم كلثوم الملحنين الشبان لإحساسها بالحاجة إلى دم جديد تجدد به فنها ورحب بذلك الملحنون الذين كانوا فى حاجة إلى صوتها المعجز ، بالتلحين لها وقد بدأت هذه المرحلة بلحن لبليغ حمدى "حب أيه" عام ١٩٥٩ وانتهت سنة ١٩٧٣ "بحكم علينا الهوى" لبليغ حمدى أيضا ، كما أنها قربت محمد الموجى منها وطالبته بالتلحين لها وقدمت له كلمات أغنية "اوقدوا الشموع" لتلحينها ولما نال اللحن إعجابها طالبته بأن يلحن "حانة الأقدار" و"محلاك يا مصرى" كما كلفته بأن يلحن لها "للصبر حدود" وإلى جانب ذلك قام سيد مكاوى بتلحين أغنية "يامسهرنى" لها •

اتهامات لفن عبد الوهاب

واجه عبد الوهاب فى حياته الفنية العديد من الاتهامات بسرقة ألحان سيد درويش منها ما ذُكر من أن "أغنية مين عذبك" تحتوى على جملتين موسيقيتين نقلا من ألحان سيد درويش كما إقتبس ألحان بعض زملائه أمثال زكريا أحمد وكمال الطويل ورؤف ذهنى

---

(١) انظر النيل الخالد ص ٢٠٩ – ٢١٠ •

ومحمد الموجى[1] والمعلم عبده الدمرداش[2] كما أتهم عبد الوهاب بسرقة ألحانه من الموسيقى الغربية ، وأن روائعه الموسيقية مقتبسه ومأخوذة من خارج الحدود لفنانين كبار من أوربا وغيرها فأغنية أهون عليك مقتبسة من أوبرا عايدة للموسيقار الإيطالى فردى و"النيل نجاشى" من نشيد "بحارة الفولجا" و"أيها الراقدون" مأخوذة ألحانها من بداية السمفونية الثامنة (الناقصة) لبتهوفن وأغنية "يادنيا يا غرامى" لحن فولكلورى روسى ، وأحبه مهما اشوف منه من تانجو إسبانيول ، وياللى نويت تشغلنى من أوبرا ريجوليتو لفردى" و"أهواك واتمنى لو أنساك لحن شعبى ألمانى ٠٠ إلى غير ذلك[3] ٠ ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل إتهم عبد الوهاب باقتباس المقدمة الموسيقية لأغنية "إنت عمرى" من لحنين الأول للموسيقى السوفيتى "أميروف" وهو الذى جعله الجزء الأساسى من المقدمة واللحن الثانى أخذه عبد الوهاب من الموسيقى الإسبانى ، أرثورو بافان" ومع ذلك فإن عبد الوهاب لم يهتز ، وكان رده على من اتهموه بالسرقة بقوله "إن حياتنا العامة والخاصة قد تأثرت بأساليب العزف فملابسنا ونظمنا ومعظم تقاليدنا الآن ، تسير على الأسلوب الغربى الذى يسيطر على حياتنا ومظاهر نشاطنا الاجتماعى والفنى ، ولا ضرر من هذا ، فالتأثر بالاتجاهات الأجنبية ومسايرة موكب النهضة العالمية شئ تحتمه سنّة التطور ٠ وهكذا وجدنا اتجاها عاما جديدا فسرنا معه ٠٠ ولبينا نداءه وأدخلنا أساليب جديدة فى موسيقانا ٠ واقتبسنا من الغرب لنطعم إنتاجنا الموسيقى ولكن ليس معنى هذا الاقتباس أن نحطم روحنا وجوهرنا ونتخلى عن طابعنا الشرقى ٠ علينا أن ندخل فى الموسيقى الشرقية آلات جديدة نأخذها عن الغرب ٠ للتعاون على أداء أنغام وإبرازها بشكل أوفى ٠٠ وعلينا أن ندخل فى ألحاننا أنغاما جديدة ، وأن نلجأ إلى التوزيع الموسيقى ، ولكن علينا أن نحتفظ بروحنا الشرقية ٠ وأن نترجم بالموسيقى عن عواطفنا الأصيلة ، فتكون مخلوقا شرقيا صحيحا وإن بدت فى ثياب غربية"[4] ٠

---

(١) انظر على سبيل المثال روز اليوسف العدد ٣٢٨٣ فى ١٣ مايو ١٩٩١ ٠

(٢) ترددت شائعة أن أحد مواويل عبده الدمرداش صاحب مقهى بالدراسة كان يتردد عليها عبد الوهاب قام عبد الوهاب بنسبة ألحانها إلى نفسه ٠ ولما سئل عبد الوهاب عن ذلك لم ينكر بل تحدث عن عبده الدمرداش بإعجاب كبير : أنظر خيرى شلبى : مرجع سابق ص٤٤-٤٥ ٠

(٣) رتيبة الحفنى : محمد عبد الوهاب حياته وفنه ص ١١٥ ٠

(٤) رتيبة الحفنى : مرجع سابق ص [illegible] ٠

ومعنى ذلك أن عبد الوهاب لم ينكر الاقتباس من الموسيقى الغربية ولم ينكر تأثره بها بل اعتبره ضرورة واجبه موضحا بأنه إذا كان قد تسرب إلى فنه شيء من الغرب فهو غالبا فن شرقي تسرب إلى الوجدان الغربي من فنون أسلافنا إذن فهي بضاعتنا ردت إلينا ، فهو يعطي للناس ما يحس به ، وإحساسه يحتم عليه معايشة عصره مع عدم تنكره لمصريته كما أكد أن هذا الكلام سيتكفل المستقبل بإثباته .

وبالنسبة لاتهام عبد الوهاب باقتباس ألحانه من أعمال زملائه فمما أشيع في الوسط الفني أن الملحن "رءوف ذهني" [1] هو الذي لحن لعبد الوهاب ألحان فيلم "غزل البنات" التي غنتها ليلى مراد ، وأنه لحن أغنية "فكروني" التي شدت بها أم كلثوم ونسب اللحن لعبد الوهاب وأن المطرب "محمد أمين" اشترك مع عبد الوهاب في تلحين الجندول و"الكرنك" ، وأن الوسط الفني شهد مشادة بين عبد الوهاب والمطرب "حسين جنيد" لأن الثاني نسب إلى الأول أنه نقل جزءا كبيرا من موسيقاه في القطعة الموسيقية "أنا وحبيبي[2]" .

وإلى جانب ذلك، حقر البعض من شأن عبد الوهاب واتهمه بتحطيم التراث رغبة منه في الثراء[3] .

تقييم دور عبد الوهاب في تطوير الموسيقى والطرب :

من الصعب إنكار أن عبد الوهاب كان يتمتع بمواهب كبيرة ، إستطاع من خلالها أن يضيف لفن الطرب العربي إبداعات ساعدت تجربة الغناء الحديث ، ورغم الاتهامات الموجهة إليه ومعاول الهدم التي حاولت النيل منه فقد ظل بفنه وعبقريته علامة مضيئة في عقول ونفوس عشاق فنه على طول البلاد وعرضها ، وذهبت إلى طي النسيان كل الأقاويل حول اقتباساته من هنا أو هناك ، وصعد عبد الوهاب على السلم الموسيقي واستطاع أن يشقلب الدنيا كما تنبأ له سيد درويش فعبد الوهاب يحسب له أنه درس الموسيقى الشرقية والغربية على أسس سليمة ، وأنه لم يهجر الموسيقى الشرقية بل سعى للسير بها بخطى عقلانية لتطعيمها بالموسيقى الغربية ، وكانت لديه القدرة على ذلك .

---

(١) كانت العلاقات بين عبد الوهاب وأسرة رءوف ذهني وطيدة لدرجة أنه تزوج "إقبال نصار" ابنة عم رءوف ذهني .

(٢) لمعي المطيعي : نساء ورجال من مصر ص ٦٩٧ .

(٣) محمد أبو الخضر منسي : الموسيقى الشرقية ص ١٠ وما بعدها .

ففى نادى الموسيقى كان يقدم التراث وفى الحفلات الخاصة كان يغنى أغانيه الجديدة ، التى أضاف فيها للموسيقى المصرية بعض الآلات الأوربية دون أن يقضى على النغمة الشرقية الصميمة وبمعنى آخر فإن ما فعله عبد الوهاب هو أنه فتح نوافذ الموسيقى الشرقية على الموسيقى العالمية ومزج كلا منهما بالآخر . وكانت عملية المزج هذه تحتاج إلى صانع ماهر مثل الجواهرجى الذى لا يخطئ ميزانه فى عملية خلط المعادن النفيسة حتى لا يحدث ضياع للقديم سعياً وراء الجديد . وهذا ما فعله عبد الوهاب فهو خالد بأغانيه تجده فيها كافة طير غرد يتنقل من غصن إلى غصن فيحول كل معانى الحياة إلى أحاسيس رقيقة تسمو بالنفس إلى الآفاق . إن دور عبد الوهاب فى تكريس أشكال متطورة للأغنية المصرية وعطاءه الخصب الفياض ، والخروج بالموسيقى العربية إلى أسماع البشر بعد تطويرها وانتظامها فى ركب الموسيقى العالمية ولفت الأنظار إلى التراث الشرقى ، وإدخاله أشكالا جديدة وآلات جديدة لم تكن مستخدمة فى الأغنية العربية من قبل يعد إضافة هامة إلى التراث الموسيقى الغنائى .

ومما سبق يتضح أن عبد الوهاب استطاع أن يرفع الراية الجديدة فى الغناء ، التى التف المستمعون حولها وتمكن من تغيير وجه الطرب فى مصر منذ منتصف العشرينيات حتى وقتنا هذا ، ووضع الأسس الصحيحة المتطورة لفن الغناء العربى التى ستبقى تراثا للأجيال فى مجال الإبداع الذى لا ينقطع على مر الزمان .

ومما يحمد لعبد الوهاب أنه فى سبيل احتفاظ اسمه بجاذبيته ولمعانه لم يعتمد على ماضيه الفنى أوصيته المدعم الأركان بل اعتبر نجاحه دافعا لمكابدة الشوك حتى تدمى منه أجزاء جسمه مهما بلغ إتقانه الفنى مداه . ونتيجة لجهود عبد الوهاب فى خدمة الموسيقى العربية ، وتمكنه من الجمع بين حلاوة الصوت وحسن الطرب ، وإتقان الضرب بالعود والتلحين بنفسه فقد نال فى حياته تكريما لم ينله فنان مثله فحصل على أوسمه ونياشين عديدة كان أبرزها قيام أكاديمية الفنون بمنحه الدكتوراة الفخرية ، ونيله رتبه اللواء الشرفية ووسام الاستحقاق ، وجائزة الجدارة ، والأسطوانة البلاتينية(١) .

لقد انعكس عشق عبد الوهاب لفنه على حبه للحياة فكان أبرز ملامحه هو قدرته على قهر الزمن ، ونفى تجاعيد السنين . فقد أحب الحياة وحرص على صحته قدر طاقته فكان يأكل بانتظام ويمارس رياضة المشى ، وينام مبكرا ويستيقظ مبكرا ، وظل طوال

---

(١) للمزيد من التفاصيل انظر رتيبه الحفنى : مرجع سابق ص ١٠٤-١٠٥ .

حياته يحنو على جسده باتقاء كل ما يمكن أن يسبب له المرض إلى حد الوسوسة لدرجـــة أنه - كما ذكر بنفسه - كان يغسل الصابونة قبل استعمالها بصابونه أخرى .

وفي الثالث من مايو ١٩٩١ رحل عبد الوهاب إلى مثواه الأخير ، وشيع جثمانه فى جنازة عسكرية مهيبة تقديرا لما قدمه للفن من جليل الخدمات .


محمد عبدالوهاب

أم كلثوم وتطور فن الغناء العربى

****

قدم التخت الشرقى بعد سيد درويش عبقريات غنائية فذه استطاعت تقديم الفن الراقى المتميز أمثال فاطمة البلتاجى[1] (١٨٩٩-١٩٧٥) الشهيرة بأم كلثوم[2] صاحبة الموهبة الفذة ، وابنه الشعب الكادح من الفلاحين الفقراء والتى استطاعت بموهبتها المقترنة بثقافتها التى كونتها بجهدها وإصرارها ومثابرتها مواجهة الصعوبات التى وقفت في طريقها [3] . وتمكنت بجمال صوتها ، وروعة أدائها ، وبذكائها في إختيار كلمات وألحان أغانيها وبقوة شخصيتها من أن تستولى على قلوب معظم المتحدثين بالعربية سواء في العالم العربى أو في غيره كما أسهم صوت أم كلثوم بمساحته الخصبة ، ومقاماته المصقولة ، وذبذباته السحرية ونبراته الوضيئه التى يتمثل فيها الجمال كله في تكوين أساليب جديدة في التلحين العربى أتاح للملحنين أن يجوبوا آفاقا جديدة ما كانت تتاح لهم لولا وجود هذا الصوت الذى غير وجه الغناء في مصر وفيما يلى نعرض لذلك .

رحلة أم كلثوم مع الغناء :

أم كلثوم من الشخصيات التى يمكن من خلالها معرفة الكثير عن حياة الشعب المصرى ، خاصة وأنها تحمل في حياتها قصة هذا الشعب الذى خرجت منه ، وقصة العصر الذى عاشت فيه فقد عاصرت عهد السلطان فؤاد وتحويل مصر إلى ملكية وعاصرت فترة حكم ابنه فاروق كما عاصرت قيام الثورة وتوقيع اتفاقية الجلاء وتأميم

---

(١) ولدت في ٣٠ ديسمبر ١٨٩٩ في قرية طماى "الزهايرة" التابعة لمركز السنبلاوين دقهلية ، وارتوت علم النغم من نبع الشيخ أبو العلا محمد وارتفع صيتها عندما انتقلت إلى القاهرة في عام ١٩٢٢ ، وكان رحيلها في الثالث من فبراير ١٩٧٥ .

(٢) الكلثوم في بعض معانيه اللغوية الراية الحريرية التى يرفعها الجندى فوق رأسه .

(٣) لم تدخل أم كلثوم مدرسة ولا جامعة ، ولم تتعلم سوى فترة قليلة في الكتاب تعليما بسيطا لا يتجاوز معرفة القراءة والكتابة ، ولكنها بذلت جهودا ذاتية لتثقيف نفسها ثقافة عالية ، وتمكنت من ذلك حتى أصبحت سيدة مثقفة ، لغتها العربية ممتازة قراءة وكتابة ، واستطاعت أن تحفر لنفسها هرما شامخا بين العظماء .

قناة السويس والسد العالى ، والصحوة السياسية المصرية على المستويين العربى والعالمى والذى عبرت عنها في أغانيها لذلك فإن قصة حياتها لا تعنى حياة فنانة مطربة موهوبة فحسب بل تذكرنا بجزء مهم من حياة المصريين ، ومن تاريخ مصر الحديث ، وبفترة المخاض التى عاشتها خلال ظهور الرواد الذين نجحوا في العبور بمصر في تحقيق حلم النهضة خلال القرن العشرين(١) ، وتركيز الجهود والإمكانات من أجل الارتقاء ، والخروج من دائرة التخلف والسلبيات التى عاشتها مصر في فترة الاحتلال البريطانى ، والمحاولات المستمرة للتخلص منه ونفض غباره عنها . وكانت أم كلثوم من أولى الفنانات المصريات اللاتى فرضن احترامهن الفنى والاجتماعى على مختلف طبقات المجتمع المصرى .

وقد بدأت رحلة أم كلثوم مع الغناء بداية متواضعة طافت خلالها مع أبيها إبراهيم البلتاجى المنشد في الموالد وأفراح القرى ومع أخيها في قرى السنبلاوين ، وبعض أنحاء الريف المصرى طوافا شاقا استغرق بضع سنوات من طفولتها وصباها المبكر الذى ارتدت خلاله الشال والعقال وملابس الصبيان ، وغنت شوامخ التراث الدينى الصوفى التى قام والدها بتحفيظها أياه . وقد أتيح لأم كلثوم وهى في نحو السادسة عشرة من عمرها أن تغنى لأول مرة في مكان قريب من القاهرة ، إذ دعيت مع والدها وشقيقها لإحياء ليلة المولد بإلقاء بعض التواشيح الدينية والإنشاد الدينى في دار أحد عليه القوم في المجتمع القاهرى بضاحية حلوان ، وكان من الممكن أن تستمر حياة أم كلثوم الفنية كذلك لولا أن القدر وضع في طريقها من أتاح لها رسم ملامح المنعطف الكبير في حياتها . فقد إلتقت الفنانة الناشئة أم كلثوم بالشيخ أبو العلا محمد (٢) الذى تصادف أن سمعها في القطار وهى تردد ألحانه دون أن تعرف أنه موجود في القطار ، ومن يومها توثقت العلاقة بينهما ، وبتوجيه منه وصلت أم كلثوم إلى القاهرة في عام ١٩٢٢م ، وأخذت تغنى في "مقهى سانتى" بالأزبكية وفى "مسرح البوسفور" في ميدان باب الحديد بدون فرقة

---

(١) عاشت أم كلثوم عصر طلعت حرب وسعد زغلول ومصطفى عبد الرازق وأحمد شوقى وطه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم وغيرهم .

(٢) ولد في بلدة بنى عدى بمديرية أسيوط في عام ١٨٧٨ ، وتعلم في الأزهر ، وتحول إلى فن الغناء ، وكان متأثرا بطريقة عبده الحامولى في الغناء وبأسلوبه في التلحين ، وظهر ذلك جليا خلال تلحينه لأم كلثوم . قام بتلحين عيون الشعر الرفيع ، كما لحن القصائد الصوفية ، وقد ارتبطت به أم كلثوم ارتباط التلميذ بالأستاذ . وظل الشيخ أبو العلا من أعمدة الغناء العربى حتى وافاه الأجل في الخامس من يناير ١٩٢٧ .

موسيقية كما غنت كذلك على مسرح حديقة الأزبكية ، وخلال هذه الفترة كان الشيخ أبو العلا بمثابة الأب الروحى والمدرسة الحقيقية التى تلقت فيها أم كلثوم فن غناء القصائد من شيخها الفنان الذى اكتشف حقيقة قدرتها وموهبتها ، ونقل ذوقه الفنى إليها ودرب حنجرتها على الألحان العربية الصميمة ، وبدأ بتحفيظها قصائد عبده الحامولى ، ويدربها على ألحانه ولم يكن "أبو العلا محمد" مجرد موسيقار فحسب بل كان صاحب رسالة هدفها تخليص الغناء المصرى من رنة الغناء العثمانى والغجرى ، وتبنى المواهب الجديدة التى تستطيع أن تقدم فنا راقيا يبعث الغناء العربى الأصيل من مرقده وينطلق بالموسيقى العربية في آفاق جديدة تتخلص فيها من الاعتماد على الارتجال والتقليد ، وتقوم على أسس علمية تستطيع من خلالها التعبير الصادق العميق عن روح الشعب المصرى وعن همومه وأفراحه[١] .

وقد وجد الشيخ أبو العلا في أم كلثوم ضالته المنشودة بعد أن أحس بقيمة موهبتها وبصوتها الجميل القوى الذى يمتلك مساحات واسعة يخاطب بها القلب والعقل معا فأخذ على عاتقه أن يتبنى هذه الموهبة ، وأن يحطيها بكل الظروف المناسبة ليقدم من خلالها فنه الراقى المتميز فتولى صوت أم كلثوم بالتدريب واستطاع صقله إلى أعلى مستوى ، وعلى يد هذا الشيخ الفنان بدأت أم كلثوم أولى مراحلها الفنية التى شربت خلالها كل قطرة فن وثقافة من أستاذها ، فظهرت أمام الجمهور لأول مرة فى خريف عام ١٩٢٣ على مسرح "بيلوت باسك" فى شارع الألفى وهى مرتدية ملابسها الريفية تصاحبها مجموعة تنشد دون مصاحبة أى آله موسيقية اللحن الدينى المشهور .

"مولاى كتبت رحمة الناس عليك"

وكادت هذه المرة تضعف من معنوياتها وتثبط من همتها خاصة عندما لم يعجب أحد المستمعين منظر ملابسها ولا طريقتها فى الغناء فصاح قائلا (كتب علينا الغلب يا أختى) وضج الجمهور بالضحك وانفجرت المطربة الناشئة بالبكاء ، ولكن الشيخ أبو العلا لم يتركها لليأس بل وقف بجانبها يساعدها على تثبيت أقدامها موضحا لها أن الجمهور مادة خام والفنان هو الذى يشكلها بيديه ، وأنه على المطربة أن تتفهم الجمهور الذى تغنى له لتتمكن من السيطرة عليه وتوجيهه . وظل هذا الشيخ الفنان بجانبها حتى وقفت على

---

(١) رجاء النقاش : لغز أم كلثوم ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠ ص ١٠٧ .

قدميها . فغنت أم كلثوم للشيخ أبو العلا عشرة ألحان[1] . منها تحفته الغنائية "وحقك أنت المنى والطلب" [2] (عام ١٩٢٦) التى غناها الشيخ أبو العلا من قبل ناسجا فيها على منوال طريقة عبده الحامولى فى تلحين القصائد ، وهى من تأليف الشيخ عبد الله الشبراوى الذى كان شيخا للأزهر . وتشاء الظروف أن يبتسم الحظ لأم كلثوم فيستمع إلى غنائها أسرتان كانتا بمثابة مفتاح بزوغ نجمها وهما أسرة آل عبد الرازق[3] وأسرة آل المهدى[4] ومن خلال هاتان الأسرتان استطاعت أم كلثوم أن تتعرف على النخبة المثقفة فى مصر ، كما استمدت منهما زادا وطنيا ساعدها على تفهم مجريات ما حولها . وأثناء ذلك استمر الشيخ أبو العلا فى وضع بصماته الفنية لإبراز صوت أم كلثوم فبعد أن غنت قصيدة "وحقك أنت المنى والطلب" غنت له "أفديه إن حفظ الهوى أو ضيَّعا" (عام ١٩٢٨) من نظم شاعر العصر الأيوبى "ابن النبيه" بعد أن غناها الشيخ أبو العلا وسجلها على أسطوانة فكانت من أجمل الألحان التى تكامل فيها التوافق بين الشعر والغناء ، حيث وضع الشيخ اللحن والكلام فى وعاء واحد وأتاح لصوت أم كلثوم أن يستعرض كل جماله واقتداره وعذوبته وجذالته فى هذه الأغنية .

وهكذا أكمل الشيخ أبو العلا من خلال صوت أم كلثوم مهمته فى تخليص الغناء العربى من العجمة العثمانية ، والرطانة الفارسية ، والألفاظ الغجرية التى عبثت بحناجر المطربين والمطربات لفترات طويلة[5] .

وبدأ الناس يستمعون من خلال صوت أم كلثوم إلى غناء يتوافق كلامه مع لحنه كما كان الشأن فى الغناء العربى أثناء ازدهاره وهكذا افتتحت أم كلثوم عهدا جديدا فى غناء القصيدة العربية ، ونجحت فى أن تعود آذان الناس على أغنيات جديدة وعلى ألحان جديدة وعلى يد الشيخ أبو العلا توسعت أم كلثوم فى استخدام المقامات الغنائية التى لم يكن

---

(١) سهير عبد الفتاح : حياة صوت أم كلثوم ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٢ ص ١٧-١٨ .

(٢) غنت أم كلثوم مقطوعات من هذه الأغانى فى فرقة عكاشة خلال عرضها رواية "محمد على وفتح السودان" بمسرح الأزبكية حيث كان يتخللها مقطوعات غنائية .

انظر البلاغ فى ١٩٢٦/٣/١٧ والأهرام فى ١٩٢٦/٥/٩ .

(٣) كان بيت آل عبد الرازق من بيوت العلم والاستناره فى ذلك الوقت فهو الذى خرج منه على ومصطفى عبد الرازق .

(٤) تبنى أمين المهدى رائد هذه الأسرة تعليم أم كلثوم أصول الموسيقى والعزف على العود .

(٥) كمال النجمى : تراث الغناء العربى ص ٧٢ .

يعرفها رجال الموالد وحلقات الذكر والأناشيد الدينية ، وبجهوده نضج صوت أم كلثوم وتمت رعايته فنيا بالتدريب والتثقيف [1] ، لدرجة أنها جعلت "القوم سكارى من الطوب" ودفعهم إلى طلب الإعادة وتصفيق الاستحسان[2] وإلى جانب ذلك فقد لحن الشيخ أبو العلا لأم كلثوم قصيدة "الصب تفضحه عيونه" التى ألفها أحمد رامى ونشرها فى جريدة السفور ومطلعها :

الصب تفضحه عيونه

وتنم عن وجد شئونه

إن تكتمنا الهوى

والداء أقتله دفينه

ونتيجة لذلك ظلت أم كلثوم متعلقة بأستاذها ، ولم تنس أبدا فضله عليها بل ظلت تذكر دوره فى حياتها الفنية ، وبأنه أفسح أمامها آفاقا موسيقية واسعة وغرس فى نفسها غرسا غنائيا طيبا ، وطبعها بطبعه[3] . ويتمثل إخلاص أم كلثوم للشيخ أبو العلا ووفائها له أنها سارت فى جنازته وراء نعشه فى الخامس من يناير ١٩٢٧ فى الوقت الذى لم يكن مألوفا أن تسير إمرأة وسط الرجال فى جنازة تسير فى شوارع وأزقة المدينة ، كما يتمثل إخلاصها له مسايرتها للتقاليد الموسيقية الشرقية التى عملها لها فقد استطاعت أن تحفظ عن طريق الشيخ أبو العلا أدوارا كثيرة لمحمد عثمان ، وعبده الحامولى ، ويوسف المنيلاوى وللشيخ أبو العلا نفسه الذى كان يلحن لها العديد من أغانيه فى البداية ، وأن تساير هذه الأدوار لفترة .

ونتيجة لذلك ارتبط ظهور أم كلثوم بثورة فنية قومية فى الموسيقى والطرب وكانت قدرات صوتها ، وما فى أغانيها من ألحان من أبرز عوامل النجاح لهذه الثورة[4] يضاف إلى ذلك أنها جمعت فى داخلها أرشيفا يعتبر ثروة فنية وتاريخية رائعة خاصة وأنها كانت تحفظ من الألحان والأغانى القديمة ما كان قد اندثر من أسماع الناس

---

(١) كمال النجمى : الغناء المصرى ص ٥٥-٥٦ .

(٢) الأهرام فى ١٩٢٦/٥/٩ .

(٣) سهير عبد الفتاح : مرجع سابق ص ١٩ .

(٤) كمال النجمى : الغناء المصرى ص ٥٥-٥٦ .

وأفواههم[1] . وظلت أم كلثوم ساحرة فى بساطتها وعقالها ولباسها العربى ونضارتها التى لا تنفد ، وجلس حولها والدها وإخوتها وأبناء عمومتها يرددون وراءها ما يحفظ للسلم الموسيقى سلامته ، والناس ينصتون إليها مشدوهين . ولما كان ينقص أم كلثوم لكى تنطلق إنطلاقتها الكبرى عنصرًا آخر مهما وهو الشاعر الذى يفهم صوتها ويكتب لها نصوص أغانيها فقد وجدت ضالتها فى الشاعر أحمد رامى[2] الذى عاد من بعثته فى فرنسا فى ٢١ يوليو ١٩٢٤ وبدأ يكتب لها بلغة جديدة تتسم بقدر أكبر من الوحدة اللغوية ، وبمستوى أسمى فى التعبير ، وقد ساعده على ذلك أن صوتها كان أحد المؤثرات التى استفزته لكتابة شعره ، واستثارت إلهامه فنظم لها العديد من الأغانى التى يفهم معانيها كل الناس حتى يرددها الجاهل والمثقف والفلاح وابن المدينة وغيره ، وقد بدأت أم كلثوم موسمها الغنائى الثانى فى عام ١٩٢٤ فى صالة "سانتى" واستهلته بمونولوج من تأليف رامى عنوانه (خايف يكون حبك ليَّه) من تلحين صبرى النحريرى وظلت علاقة أم كلثوم ورامى تزداد وثوقا ولم يفترقا منذ ذلك الوقت ، فكتب لها أكثر من ٢٥٠ قصيدة غنائية اختارت منها ما راق لها . وكان لاتصال رامى بأم كلثوم أكبر الأثر فى النهوض بالأغنية المصرية ، فبعد أن كانت تتميز بالإباحية فى التعبير بدأ رامى بشعره يحبب القصيدة الفصحى إلى قلوب العامة معتمدا فى ذلك على جمال صوت أم كلثوم وبديع نظمه وحلاوة عباراته . ونتيجة لذلك أخذت شخصية أم كلثوم الفنية فى التبلور ، كما أخذ صوتها يجذب جمهور المستمعين ، وعباقرة الملحنين الذين اكتشفوا قدراته واستطاعوا من خلاله أن يقدموا أجمل وأرقى ما عرفته الموسيقى العربية من ألحان هذا العصر[3] والذى كانت حنجرة أم كلثوم ناطقة بإبداعاتهم وكان من أبرز هؤلاء محمد القصبجى[4]

---

(١) رجاء النقاش : لغز أم كلثوم ، مرجع سابق ص ٢٤ .

(٢) ولد فى ١٩ أغسطس ١٨٩٢ بحى السيدة زينب بالقاهرة ، وتخرج فى مدرسة المعلمين العليا ، والتحق بوظيفة فى قسم الفهارس بدار الكتب ، وصدر له أول دواوينه فى عام ١٩١٨ ، سافر فى بعثه إلى باريس لدراسة الفارسية ، وفى عام ١٩٢٤ عين مستشارا فنيا بالإذاعة وعضوا بلجنتى الشعر والفنون الشعبية بالمجلس الأعلى للفنون والآداب .

(٣) سهير عبد الفتاح : مرجع سابق ص ٢٢ .

(٤) ولد مع سيد درويش فى عام واحد (١٨٩٢) ودرس فى كتاتيب الأزهر ثم درس أصول الموسيقى العربية والعزف على العود ، والتحق بمدرسة المعلمين الأولية ، وكان ظهور أم كلثوم بمثابة نقطة تحول فى حياته الفنية ، كما كان تطعيمه للموسيقى العربية بالموسيقى الغربية أثرا فى إبراز طبقات أم كلثوم الصوتية .

الذى خلع عمامته وجبته ولبس البدلة وكان فى مقدمة المجددين فى فن الغناء وقد قدم لأم كلثوم فى أوائل العشرينيات أكثر من ثلاثين لحنا ، كانت عبارة عن محاولات وتجارب استفاد فيها من أساليب الفنون الغربية والشرقية بما فيها الأساليب التركيه ، ويعتبر مونولوج "إن كنت أسامح" الذى لحنه لأم كلثوم أعلى صيحة فى التجديد الغنائى ، وقد سار على منواله كل من رياض السنباطى[١] وزكريا أحمد[٢] وداود حسنى[٣] ، والدكتور أحمد صبرى النحريرى[٤] ومحمد عبد الوهاب ومحمد الموجى وكمال الطويل وسيد مكاوى وبليغ حمدى وغيره • وكانت ألحان كل منهم لأم كلثوم لا ينازعهم فيها أحد ، خاصة وأنها كانت كالنحلة التى تأخذ من كل وردة رحيقها • وقد كانت علاقة أم كلثوم بملحينها علاقة من نوع خاص فهى لا تغنى اللحن فقط ، بل تلهم الملحن وتنشر ألحانه فى الآفاق • ولم تكن شريكة عادية فى الأغنية بل كانت الطرف الأقوى نظرا لأنها قارئة ذكية تستطيع أن تستوعب معانى الكلمات على أعلى درجات الثقافة الفكرية لذلك ، كانت تختار الكلمات وتعدلها أحيانا مهما كان الشاعر الذى يؤلف أغانيها ، يضاف إلى ذلك أنه كان لها رؤيتها فى اختيار الكلمات دون مجاملة لأحد على حساب فنها الأصيل ، فلم يعرف عن أم كلثوم أنه كان لها شلة من مؤلفى الأغانى الذين يحاصرونها بأعمالهم بل كانت تختار من دواوين الشعر التى كانت تقتنيها فى مكتبتها الخاصة ما يتلاءم مع رغبتها سواء كانت على صلة بهذا الشاعر أو ذاك وأبرز الأمثلة على ذلك ما ذكره الشاعر السودانى " الهادى آدم" عن قصة اختيار أم كلثوم لإحدى قصائده وهى قصيدة "أغدا ألقاك • ياخوف فؤادى من غدى" أنه فوجئ بوصول خطاب من سيدة الغناء باسمه تدعوه فيه للحضور إلى القاهرة للاستماع إلى إحدى قصائده التى اختارتها من

---

(١) كان أول لقاء للسنباطى بأم كلثوم فى عام ١٩٢٢ على رصيف محطة (درين) دقهلية خلال اشتراكها مع والدها فى سهراته ولياليه بإنشاد المدائح النبوية والقصائد الدينية ، ولم يكن يدرى أحد منهما أنه سيلتقى بالآخر مرة ثانية ، وستكون ثمار لقائهما تلك الروائع والبدائع اللحنية التى تزخر بها المكتبة الغنائية • أنظر • بريزم للموسيقى • التاريخ الفنى للموسيقار رياض السنباطى ص ١٠ •

(٢) كان زكريا أحمد صاحب نصيب وافر فى رسم الحنجرة الذهبية لأم كلثوم ، وفى تشجيع والدها على العمل بالقاهرة •

(٣) لحن داود حسنى لأم كلثوم مجموعة من الأدوار والطقاطيق ذات القيمة الفنية العالية •

(٤) طبيب أسنان وملحن وتعاملت معه أم كلثوم فى بدايه حياتها الفنية وقبل احترافها الغناء •

ديوانه الذى لم يرسله إليها بل كانت قد اشترته رغم أن أغلى أمنياته التى لم يكن قد تمكن من تحقيقها قبل ذلك هو الاستماع إلى أم كلثوم فى أى من حفلاتها[1] .

وإلى جانب ذلك فقد كانت أم كلثوم تختار لحن أغانيها وتتصرف فيه وتفرض صوتها عليه [2] وليس أدل على ذلك من أنها كانت تتحكم فى ألحان أغانيها ، فكان يمكنها وهى تغنى أن تطيل فيه أو تختصره إذا أرادت ، وكانت الآلات الموسيقية غالبا تخفت أصواتها عندما يرتفع صوت أم كلثوم بالغناء . لقد كان دور أم كلثوم فى الارتقاء بالغناء المصرى إلى مستوى شاعرى أكثر نبلا ، ويتضح ذلك فى أنها جعلت الجمهور ينتقل من مستوى الأغانى المبتذلة ذات الدلالات والإيحاءات الهابطة ، والميوعة والتأوهات مثل :

"هات القزازه واقعد لاعبنى" و"ارخى الستارة اللى فى ريحنا أحسن جيراننا تجرحنا"

و"عصفورى يا أمه عصفورى   لا ألعب وأورى له أمورى"

و "يوم ما عضتنى العضة   وجابولى طاسة الخضة"

و "أبيع هدومى علشان بوسه   من خدك القشدة يا ملبن

يا حلوة زى البسبوسه   يا مهلبية كمان وأحسن "

و"اشبكها واحبكها بدبوس   وانزل على صورتك واعض وأبوس

حتتك بتتك وتعاليلى يا بطه ، وتعال يا شاطر نروح القناطر ، وغير ذلك من الأغانى الرخيصة التى تعبر عن تفسخ المجتمع وتفشى روح الانحلال فيه والتى كانت تجد شهرة ورواجا لا قبل لأحد بمقاومتها إلى مستوى القصائد ، والشعر الراقى ودنيا الطرب الأصيل مثل "إن حالى فى هواها عجب" أو رباعيات الخيام[3] .

وعلى الرغم من أن هذا الطريق لم يكن سهلا ، خاصة وأن الاتجاه السائد لدى الفن فى ذلك الوقت كان يميل إلى أن يسود الذوق الرخيص ، وانحدار القيم ، فإن الحرب بدأت تشتعل ضد أم كلثوم من جهات عديدة ومع ذلك فقد حرصت على أن تبدأ عصرا جديدا من الغناء ، وأن تتمسك بما تؤمن به وأن تبتعد عن الأغانى منخفضة المستوى والتى

---

(١) مصطفى الضمرانى : قضايا ثقافية معاصرة ص ٦٧ ـ ٦٨ .

(٢) سهير عبد الفتاح : مرجع سابق ص ٦٦ .

(٣) المصور : تصريح لأم كلثوم فى ١٩٧٥/٢/٧ ص ٢ .

كانت شائعة فى الأربعينيات وعلى الرغم من مطالبة البعض لها أن تغنى أغانى من اللون الذى كان سائدا فى ذلك الوقت ومحاولتهم المستمرة للضغط عليها[1] فقد استطاعت أم كلثوم أن تنتصر على تيار الأغانى المبتذلة ، ورفضت تماما أن تستسلم لهذا النوع من الأغانى ، وظلت تبحث عن نصوص غنائية نقية رفيعة مهذبة ، فغنت لأمير الشعراء أحمد شوقى[2] الذى وجدت فى شعره معينا سلسبيلا ولشاعر النيل حافظ إبراهيم[3] ولأبى فراس الحمدانى وغيرهم ونتيجة لبروز أم كلثوم فى مسرح الغناء ، ومنافستها لمعاصريها فقد تعرضت للعديد من الافتراءات والإتهامات فى محاولة من بعض منافسيها للإساءة إليها فى شخصها وإشغالها عن فنها ، فادعى رجل من ذوى الأملاك بقنا يدعى "عبد الستار الهلالى" زورا أنها زوجته ، ولم تعرف أم كلثوم بقصة هذا الزواج إلا عن طريق إعلان على يد محضر يطالبها فيه هذا الرجل أمام محكمة عابدين بالعودة إلى عصمته ، ولما لم تتضح صحة دعواه نال نصيبه من العدالة ، وإلى جانب ذلك فإنه نتيجة لنجاحها الكبير تعرضت للكثير من المضايقات التلفونية التى كانت ترهق أعصابها ، كما حاولت منيرة المهدية سلطانه الطرب وقتذاك الإطاحة بأم كلثوم التى اعتبرتها المنافسة الأولى لها وكانت وسيلتها إلى ذلك محاولتها اصطناع نسخة أخرى من أم كلثوم فتنزل إحدى الفتيات مرتدية الكوفية والعقال على رأسها كما كانت تفعل أم كلثوم فى بداية حياتها الفنية ويقف من خلفها التخت وتردد بعض الأغانى الدينية والطقاطيق متحدية بذلك أم كلثوم الحقيقية ، وإزاء ذلك اضطرت أم كلثوم إلى توزيع إعلانات باليد ، نشرتها

---

(١) يؤكد ذلك أن أم كلثوم جاءت فى المرتبة الثالثة فى الاستفتاء الذى جرى فى عام ١٩٢٦ عن أحب المطربات فكانت الأولى منيرة المهدية ، والثانية فتحية أحمد ، وكانت الثالثة أم كلثوم ٠

أحمد زكى عبد الحليم : نساء فوق القمة ، القاهرة ، دار الفيصل ١٩٨٧ ص ١١٨ ٠

(٢) بادر شوقى بكتابة قصيدته الوجدانية البارعة "سلو كئوس الطلا" فكانت أول قصيدة من شعره حفظتها أم كلثوم فى عام ١٩٣١ ثم غنت له" الملك بين يديك فى إقباله" وقصيدة "ريم على القاع بين البان والعلم" والتى سماها شوقى "نهج البردة" لأنه نسج فيها على منوال قصيدة البردة للبوصيرى ، وإلى جانب ذلك فقد اختارت أم كلثوم من ديوان شوقى ما يطابق الأحداث التى مرت بها مصر لغنائها ومنها قصيدة النيل ، وقصيدة إلى عرفات الله ٠ والاشتراكيون أنت إمامهم ٠

(٣) يروى أن أم كلثوم كانت على صلة بحافظ إبراهيم وعبد العزيز البشرى وكان لها معهما ومع أصدقائهما جولات وحكايات ، وتعلمت منهما فنون الأدب وفنون النكتة أيضا ٠

للتفاصيل أنظر عبد العاطى كيوان : الفكاهة والسخرية عند حافظ إبراهيم القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٩٧ ص ٦٣ ٠

الصحف بعد ذلك تحذر جمهورها من المقلدة لها ، كما كانت تكتب فى إعلانات حفلاتها أم كلثوم الأصلية ، على أن هذه الحرب لم تستمر طويلا ، فقد شقت أم كلثوم طريقها بخطى قوية دون أن تلتف وراءها واختفت الفتاة الأخرى ، حيث لا يصح إلا الصحيح خاصة وأن أم كلثوم استطاعت الصمود ، ووقفت كالطود الشامخ تتكسر الأمواج عند قدميها ، وصمدت أمام كل الدعاوى لتتساقط كأوراق الخريف ، لا تهتم إلا بفنها حتى انقشعت كل سحابات الصيف تحت حرارة فنها وصوتها الجميل ·



عبد الحليم حافظ إنطلاقة جديدة فى سماء الطرب

امتدت فترة نجاح عبد الحليم حوالى عشرين عاما من منتصف الخمسينيات إلى منتصف السبعينيات . وقد شهدت فترة ازدهار نجاحه وشعبيته الكاسحة ازدهارا رائعا فى شتى جوانب الحياة الثقافية فى مصر ، واقترن هذا الازدهار بالتحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى أحدثتها ثورة يوليو ١٩٥٢ فالعلاقة بين أغانى عبد الحليم والتحولات السياسية والاجتماعية لا تقتصر على أنها ظاهرة فنية موهوبة فحسب بل هى ظاهرة تاريخية واجتماعية أيضا ، فقد عبر عبد الحليم فى أغانيه عن الثورة وإنجازاتها ، وعن مكاسبها التى حققتها لها الثورة [١] مما اعطاه الفرصة ليصبح نجم الشباب الأول .

لقد نشأ عبد الحليم يتيما وعانى مرارة الحرمان بعد أن فقد أمه ساعة مولده ، وفقد والده بعد أمه بأسبوعين وعاش كقروى بسيط ، ضعيف البنية بحكم ما دخل جسمه وهو صغير من أمراض كالبلهارسيا وغيرها حيث لم يدرك أن الترعة التى لم يعط ظهره لها فى قريته بالشرقية ستصبح سبب عذابه وسيظل يعانى من آثارها مثل ملايين القرويين المصرين ، ثم تيسرت له فرصة الدراسة فى المعهد العالى للموسيقى المسرحية الذى تخرج منه فى عام ١٩٤٩ ، وساعدته موهبته على الصعود إلى ميكروفون الإذاعة ، فقبل مطربا إذاعيا بعد أن استمعت إليه لجنة سماع الأصوات بالإذاعة فى أغنية "ظالمه" التى لحنها له "محمد الموجى" ، وابتسم له الحظ إذ صادف نضج موهبته التحول الاجتماعى الذى صاحب ثورة يوليو ١٩٥٢ ، فشارك فى مهرجانات هيئة التحرير التى كانت تقام بمناسبة احتفالات ثورة يوليو ، وكان رغم حزنه الدفين الموروث من أيام الحرمان الطويلة التى عاشها فرحا سعيدا مثل بقية أبناء طبقته من المصريين بما تحقق على أيدى الثورة ، فراح هو وجيله يغنون لأول مرة أغانى مرحة متفائلة بالحياة وغير يائسة من لقاء الحبيب كما كانت تتردد الأغانى السائدة فى ذلك الوقت والتى كان الحزن يخيم على أغانى الحب واليأس من فراق الحبيب ولهيب الشوق الذى يصعب أطفاؤه فغنى أغنية

---

(١) جلال أمين : ماذا حدث للمصريين – تطور المجتمع المصرى فى نصف قرن ١٩٤٥-١٩٩٥ ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ١٩٩٩ ص ٢٢٠ .



عبد الحليم حافظ



عبد الحليم مع فريد الأطرش



شادية و عبد الحليم حافظ في فيلم لحن الوفاء

"صافيني مرة [1] " التى نالت أعجاب الحاضرين لما فيها من فـرح وابتهـاج بالحيـاة ، وتفاؤل برضا الحبيب وكانت سببا فى انطلاق شهرة عبد الحليم وإعجاب الملايين بصوته فأصبح معروفا ومشهورا والناس تشير إليه فى كـل مكـان ، ويطلبـون أغانيـه فـى الحفلات[2] .

وقد لعب الموسيقار "محمد حسنى الشجاعى" والموسيقار "كمال الطويـل" و"محمـد الموجى" أدوارا مهمة فى حياة عبد الحليم ، فقد وجهه الشـجاعى إلـى دراسـة الآلات الموسيقية التى صقلت مخارج صوته وقامت بزيادة حصيلته كمطرب ، وجعلته أقدر على معرفة إمكانات صوته . وشجعه "كمال الطويل" على احتراف الغناء بعد أن تخصص فى دراسة الآلة الموسيقية "الأبوا" ، وساعده فى العمل كمطرب رسمى بالإذاعة . أما محمد الموجى فقد كان بمثابة الانطلاقة الجديدة التى ساعدت عبد الحليم على الظهـور خاصـة وأنه كان يبحث عن أداء وأسلوب جديد فى الغناء ، وكـان عبـد الحلـيم بمثابـة هـذه الانطلاقة . ونتيجة لذلك أخذ الطويل والموجى يركزان أعمالهما على عبد الحليم بعد أن كانا يوزعان الألحان بين "نجاح سلام" ونجاة " وصباح" ومحمد قنديل" وإلى جانب ذلك فقد كان من حسن حظ عبد الحليم أن يلتفت "محمد عبد الوهاب" و"أم كلثوم" إلى صوته مـن خلاله تسجيلاته الصوتية .

فقد تعرف عبد الوهاب على عبد الحليم عندما استمع إلى صوته وهـو يغنـى فـى الإذاعة بصوته الحالم الرقيق "ياتبر سايل بين شطين يا حلو يا أسـمر" فاسـتدعاه إلـى مكتبه واستمع إلى صوته بعد أن غنى له أغنية "جبـل التوبـاد" التـى كانـت بصـوت عبد الوهاب ومن ألحانه الرائعة ، والذى استطاع عبد الحليم أثناء غنائها أن يكون فـوق مستوى التقليد ، فغنى بإحساسه وانفعاله ، وبطبيعة صوته المستقلة ، ولـيس كمـا يقلـد الآخرون عبد الوهاب تقليدا أعمى . وقد أراد عبد الوهاب فى بداية علاقته بعبد الحليم أن يحتكر أعماله كمطرب تسجل أغانيه على أسطوانات وفى أفلام من انتاجه خاصة وأن عبد الوهاب شعر بحاسته الفنية بأن عبد الحليم "هو الواد اللى هايكسر الدنيا" وسـرعان مـا

---

(1) كتبت هذه الأغنية ولحنت ليغنيها عبد الغنى السيد ، ولكن كلماتها لم تعجبه فكانت من حظ عبد الحليم .

(2) مجلة أكتوبر : العدد ٨٣٤ فى ١٨ أكتوبر ١٩٩٢ حوار لحلمى البلك مع مجدى العمروسى .

غضب عبد الوهاب على عبد الحليم بعد أن خرج عن طوعه وتعاقد مع السيدة آسيا التى انتجت له فيلم "لحن الوفاء" فأمر بعدم دخوله مكتبه ، وسرعان ما عـادت الأمـور إلـى مجاريها بعد أن تدخل مأمون الشناوى فى الأمر وحضر عبد الحليم واعتذر لعبد الوهاب وقبّل رأس الأستاذ ، ومن وقتها دخل عبد الحليم قلب عبد الوهـاب وأصـبحا صـديقين وشريكين [١] . وسارت الأمور على ما يرام ، وأصبح لعبد الحليم مكانة خاصة عند عبد الوهاب خاصة وأنه كان معجبا بصوته وأسلوبه فى الأداء ، ودقته فى التـدريب ، فبـدأ يلحن له معربا عن حاجة المجتمع إلى صوته ، ومن هنا أصبح لعبد الحليم كيان مستقل ، ووجود مؤكد وبصمة واضحة فى عالم الغناء وكانت أول أغنية لعبد الحليم من ألحان عبد الوهاب هى :

إيـــــه ذنبــــى إيــــه　　　　مــــا تقــــولى عليــــه

تخاصـــــــمنى ليــــــه　　　　لمـــــا انـــــت حبيبــــى

وقد نجحت هذه الأغنية نجاحا هائلا ، وكان عبد الحليم سعيدا بنجاحه الذى ساعده فيه التغيرات التى أحدثتها الثورة ، فغنى الأغانى التى تنطوى على اعتـزاز المصـرى بنفسه سواء إزاء الحبيب أو المحتل الرابض على أنفاس أبناء وطنه وغنى للسد العـالى ، قلنا إحنا هانبني وأدى احنا بنينا السد العالى ، يا استعمار بنيناه بايدينا السد العالى وغنى لعبد الناصر أغان عديدة منها أغنية ناصر ، وأغنية أحلف بسماها وبترابها أحلف بدروبها وأبوابها ، ما تغيب الشمس العربية طول ما أنا عايش فوق الدنيا ، وظل عبد الحليم رمزا للأمل والمستقبل الزاهر وساعده فى ذلك أبناء جيله من الشعراء والملحنين فقدم له "صلاح جاهين" و"مرسى جميل عزيز" و"الأبنودى" كلمات أغانى ذات معان بهيجة وبسيطة ومعبرة وصادقة ، ولحن له "كمال الطويل" و"الموجى" و"بليغ حمدى" مجموعة من الألحان الجميلة والصادقة التى أطلقت طاقاته الشعورية عند حدها الأقصى ، وشكلت من أدائه شخصـية غير مسبوقة فانطلقت نبرات صوت عبد الحليم مستمدة من أحاسيس الطبقـات الشـعبية المصرية ، ومن تراثها الموسيقى فغنى للناس ، وغنت الناس معه . ونتيجة لذلك احاطت

---

(١) كامل الشناوى : مجلة الفن أول أبريل ١٩٩١ .

الثورة وزعيمها جمال عبد الناصر عبد الحليم بذراعيها ، وكانت أغانيه بمثابة الصوت المعبر عن أهدافها ٠

ومما يذكر أن الرئيس عبد الناصر وقف بقوة بجانب عبد الحليم وساعده على تخطى المشاكل التى تعرض لها ، فعندما شارك عبد الحليم فى حفل كانت تغنى فيه أم كلثوم ، وقد غنت أم كلثوم قبل عبد الحليم وتألقت كالعادة ، وامتعت الجمهور الذى طالبها بالمزيد لدرجة أنها أنهت وصلتها فى الثالثة صباحا وسط ثورة من التهليل والتكبير ولما صعد عبد الحليم للغناء كانت نصف الصالة قد خرجت مما جعله يعلن على الهواء أن أم كلثوم تعمدت أن تطيل فقرتها الغنائية حتى تقلل من قدره أمام الناس حين يغنى بعدها ويكون الجمهور أغلبه قد انصرف وأنه لا يعرف إذا كان طلوعه على المسرح بعد كوكب الشرق معناه شرف له أم مقلب قد شربه ولما سمعت أم كلثوم بذلك غضبت غضبا شديدا مما دفع المشير عامر إلى التدخل وإصدار أوامره لعبد الحليم بالاعتذار لها وإلا قام باعتقاله ٠ وهنا تدخل عبد الناصر فى الموقف لحماية عبد الحليم ، وقرر أن يجعل أم كلثوم هى نجمة حفل عيد الثورة بينما يكون عبد الحليم منفردا هو نجم حفل عيد تأميم قناة السويس[١] ٠

والسؤال المطروح هو ماذا عن علاقة عبد الحليم بفريد الأطرش وهل استمر الوفاق بينه وبين عبد الوهاب ٠ الواقع أنه كان لكل من المطربين لونه الخاص وقد التقيا خلال رحلة العمر على ود ومحبة ، وإن كان البعض قد نجح فى تعكير صفو علاقتهما فى كثير من الأحيان وتصوير جو من المنافسة المفتعلة بينهما ، وقد أكد ذلك الصحفى الكبير مصطفى أمين بقوله "لم يحارب عبد الحليم فريد الأطرش ولم يدفع أحدا إلى اضطهاده ، ولكن الشلة التى كانت حول فريد هى التى صوَّرت له هذا ٠٠ ولو قدر لفريد أن يجد فى حياته الناصح الأمين ، أو الصديق الوفى أو الشريك كما وجد عبد الحليم حافظ لكان نجاحه الكبير قد تضاعف مرات ومرات" ٠

أما عن علاقة عبد الحليم بعبد الوهاب فقد إزدادت وثوقا لدرجة أن عبد الوهاب لحن له أغنية" من غير ليه" ليغنيها بعد عودته من رحلته العلاجية فى أوربا ، ولما كان للقدر

---

(١) سعيد عكاشة : السياسى والفنان ، عبد الناصر وأم كلثوم مقال بهلال نوفمبر ٢٠٠١ ص ١٣٢ ٠

رأى آخر فقد سعى كثير من المطربين والمطربات الفوز بالأغنية غير أن عبد الوهـاب رفض أن يعطيها لأى منهم وغناها بنفسه [١] خاصة وأنه لم يكن ملحنا محترفا يذهب لـه المطربون فيلحن لهم ، ولكنه كان يفضل صاحب الصوت الجميل ليلحن له ، هذا عن دور عبد الحليم فى الغناء أما عن دوره على شاشة السينما فقد ظهرت له أفلام عديدة منها فيلم لحن الوفاء وكان أول أفلامه التى فتحت له النافذة الكبيرة على الشاشة البيضاء ، كما كان الدرس الأول له فى عالم السينما وحول ذكريات عبد الحليم عن هذا الفيلم يذكر "انتقلنا إلى تصوير خارجى ، انطلقنا إلى حديقة الأسماك لتصوير مشهد وكان المشهد بينـى وبـين المطربة شادية وكان علىَّ أن أمسك بيدها ، وأن أغنى لها ، وأن أقول لها كلمات الحب ، وفجأة شعرت بأننى مراقب لقد تجمهر جمهور حديقة الأسماك حولنا ، وفقدت كل قدرتى على مواجهة الكاميرا وعلى مواجهة شادية ، وعبثا حاول المخرج "إبراهيم عمارة" إقناعى بمواصلة التمثيل ولكن كنت أخاف من ازدحام الناس حولى ، واضطر "إبراهيم عمارة" أن يستعين بالبوليس •• وكانت هى المرة الأولى التى أغنى فيها وأمثل أيضا ، فى حراسة الهراوات والبنادق والخوذات[٢] • وتوالت بعد ذلك أفلام عبد الحليم التى عشقها الشباب والتى قام بتمثيلها مع مشاهير الممثلات فى ذلك الوقت مثل أيامنا الحلوة مع فاتن حمامة ، وليالى الحب مع آمال فريد ، ويوم من عمرى مع زبيده ثروت ، والخطايا مـع نادية لطفى، وشارع الحب مع صباح ، ومعبودة الجماهير مع شادية ، والبنات والصيف مـع سعاد حسنى وزيزى البدراوى ، وأبى فوق الشجرة مع نادية لطفى وهكذا والواضـح أن عبد الحليم فى أدائه لأغانى هذه الأفلام كان قد تأثر بأغانى عبد الوهاب السينمائية ، وإن لم يقلدها • وقد نجحت هذه الأفلام وأصبح عبد الحليم على كل لسان •

والخلاصة أن صوت عبد الحليم كانت له مكانة خاصة بين النـاس خاصـة لـدى الشباب المحبين من الجنسين فكان صوته أحب الأصوات لـديهم وأكثرهـا نفـاذا إلـى قلوبهم ، وكانت أغانيه تتردد على أفـواههم خاصـة وأنهـا كانـت أحسـن أصـوات المطربين الشبان الذى أمتاز بمتانه أدائه ودقته ومعدن صوته الخصب وفطرته الموسيقية الغنائية •

---

(١) رتيبه الحفنى : مرجع سابق ص ٤٣ – ٤٤ •

(٢) عبد الحليم حافظ • مذكراته ومجموعة أغانيه ، بيروت ، المكتبة الحديثة ص ٤٤-٤٥ •

فهرست

